صهيل السواتر

رواية

عبد شاكر

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق

٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:

اللجنة العليا موسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق

مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(   )

البريد الالكتروني :

www.baina.com

العراق:كربلاء المقدسة

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٣ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني :

عمار محمد العقابي

عماد محمد البيرماني

صهيل السواتر

رواية

عبد شاكر

بغداد/ مدينة كمب سارة/ ٢٠١٣م

الرابعة صباحاً

يفز سنان بطرس متّي-القاص والروائي الذي عُرفَ بفوضويته- من فراش القلق على وقع صوت مهيب همس في دواخله كما المسّ:

(نحن الذين نكتب للآخرين الإنسانيين يجب أن ندرج على تقبيل أيدي بعضنا البعض، أما الذين تلطخت أيديهم بدماء قتل الأبرياء فالأولى بهم أن يخفوها في جيوبهم بانتظار أن يقطعها البسلاء لهم).

يسحب نفساً عميقاً، يزفرهُ، يضغط بأصابعه على جهة القلب بقوة، يشعر بتقلصات وفراغ في قلبه، يمسح عن جبينه حبات خفيفة من العرق، يدوّن ما سمعه في مسودات موبايله القديم.

يفكر ملياً:

- ما هذا الذي تملكني الآن؟ أكانت هذه هي نداءات العقل الباطن أم إنها شطحات مبكرة لجنون مستديم؟!

في الساعات الأولى من الصباح يرسل المقطع الذي دوّنه عن طريق جهاز

الموبايل إلى صديقه د. سليم عبد الصمد – أستاذ علم النفس التربوي- يكتب له رسالة توضيحية أخرى عن قصة كتابة هذا المقطع المُرسل إليه صوتياً عبر مخيلة النوم العميق، يستفسرُ منهُ عمّا يمكن أن يكون؟

لم ينتظر طويلاً حتى أتاه الجواب:

- إطمئن يا صديقي الطيب المسألة عادية جداً، سأشرحها لك في أقرب وقت ممكن، سأقبّل كفيك أينما نلتقي.

يحاور نفسهُ بصوت عالٍ:

هكذا إذًا؟! شيء ما اخترق أذني وعقلي الباطن هاتفاً فيَّ : نحن الذين نكتب للآخرين الإنسانيين يجب أن ندرج على تقبيل أيدي بعضنا البعض.

ثمة أسباب وظروف غامضة اختارت له سماع هذا الصوت في الوقت الذي قرر فيه أن يكتب روايتهُ الأولى، بعد تخرجه رسّاماً من كلية الفنون الجميلة العام المنصرم، ثمةّ شيء خفي أمره أن ينبش في أنقاض الأحداث بحثاً عن الحقيقة التي ضاعت وتلاشت داخل نسيج الفوضى في السنوات العشر الماضية، هو ود.سليم عبد الصمد وصديقهما الشاعر المجنون حسن الحمود. الحقيقة!! حقيقة العقل عندما يكون صنواً للحياة خارج نطاق اللامعقول، يتناول فنجاناً من القهوة، يغتسل على عجل، يرتدي ملابسه، يصفق الباب خلفه، تلفظه شقته القديمة، تحتضنه فوضى الشوارع.

الأنبار/ ٢٠١٣م

من نافذتها التي تطلُّ على الخوف واللا شيء، إذ تتطاير الستارة بهدوء لتسمح لبصيص الضوء المنبعث من المصابيح الخابية أن تمرّ على تفاصيل غرفتها التي يلفها الصمت وتغلفها الوحشة ولا يُسمع منها غير سُعال رجل مصدور بأنينه الخافت وجسده المتهالك فوق سرير خشبي فُرش بملاءات طُرزت بالورد، وثمّة عند الحائط المقابل مرآة قديمة مستطيلة الشكل تنتصب فوق منضدة خشبية ببابين متهالكين وجرّارات كُسرت مقابضها وبساط غامق اللون يمتد على مساحة غرفة خالية من كل حياة، إلا من امرأة مديدة القامة تدعى سعاد مندل، الأنثى التي تقف على اعتاب منتصف العقد الثلاثيني، ناضجة بلونها الخمريّ الذي يشبه شمس ما بعد الأصيل وهي تُسبلُ جدائل أشعتها على امتداد حقول الحنطة ذات السنبل الأصفر، بعينيها السوداويين وشعرها الغجري الفاحم الذي تختفي تموجاته الرائعة تحت طيّات شال أسود يمنحها شكلاً مثيراً عبر شفافيته المخملية، أنثى أنبارية بخيالات كثيرة، اكتسب وجهها حُزناً بعد الفترة العصيبة التي تلت مقتل زوجها الشاب (هيثم صكر الزين) عند تخوم أبي غريب حيث يعمل، قُتِلَ بوحشية وهو يذهب إلى عمله في العام الأول لمصارع الطائفية، ترك مقتله ندوباً لا تُشفى في دواخلها، لكن الحزن بكل ما حمل لها من انكسارات، لم يُغيِّر شيئاً من تفاصيل وجهها المثير التقاطيع، الغريب الجمال بلا

تكلفٍ، والعادي جدًا حتى القبح، قبحٌ محببٌ لامرأة من جذور ريفية، امرأة حزينة بوجه قمحي فيه قداسة ووجوم وأنوثة، يجّملهُ ذلك الصوت العميق الدافئ بنبرة تهدج تلامس قلب ومشاعر من يحادثها أو يستمع إليها وهي تتكلم بحزن عن خيبتها وشعورها بالملل بعد مقتل زوجها الشاب.

أغلب الذين ادّعوا الإيمان والجهاد راودوها عن نفسها، كانت تمتنع بشراسة وصلافة، الأمر الذي أجبرها على الاقتران برجل ستيني أمّنت معه توفر السقف والرغيف.

يُرعبها سرعة تتالي الأحداث، العنف الحاد، نبرة الكراهية، أصوات المعارك المندلعة بين الأهالي والحكومة، وبين الحكومة وجُند القتل الجُدد، بملابسهم الغريبة ولكناتهم الكثيرة المتشابكة، وعمائمهم السوداء، وأشكالهم القذرة، ولحاهم الطويلة، وغدّاراتهم المعلقة على أكتافهم أو المخبئة تحت آباطهم وطيّات ملابسهم التي يعلوها الوسخ، وليلهم الذي يهبط محملاً بالنُذُر، إذ تغرق تفاصيل الحياة بالعُتمة المُخيفة والأصوات المرعبة وألوان النار التي تُحدثها الانفجارات والرصاص المذّنب المتطاير عبر الاتجاهات كلها، المستمر حتى الصباح.

ثمّة مجاميع تقتل وتذبح وتُكّبر بأصوات منكرة مرعبة، وتفتح نيران بنادقها على كُلِّ شيء يتحرك، وثمّة سماء مشتعلة بقصف الطائرات وأصوات المدفعية وهي تدك المعالم وتنشر الموت والخراب في كل الأرجاء، تحرص على زوجها المريض الذي نهش السرطان جسده منذ السنتين تقريباً، تسميه أباً وتتخذهُ زوجاً، تهتم بعد تدهور الأوضاع بمسألة نقل سريره إلى مكان آمن. حرب الكراهية على الأبواب، وهي

لا تريد أن تفقد زوجاً آخرَ. البيوت منتصبة بذلّة، مغلفة بدخان أسود ورمادي، السيوف والصواريخ عامرة، الرقاب والجثث جاهزة، لا شيء طبيعي، يخاف الناس من كل شيء، حتى من حيواتهم وأنفسهم، يختنقون، يبكون، يضحكون ببلاهة ومرارة، يصرخون بالفراغ والجدران (إذا كانت كلمة الله هي العُليا، وترنيمة الله أكبر هي الأصدقُ والأعمق، فلماذا الموتُ قتلًا وذبحاً؟) يقتنعون تماماً بالمسألة التي يتداولونها فيما بينهم (إذا جبُنَ الناس، أصبح من الضروري تمسكهم بالحياة وبالعالم، وصار أمر تشرذمهم وقتلهم يسيراً).

تحرصُ سعاد مندل نهار كل يوم قتل جديد على الاعتناء بصحة زوجها المريض المُسن وتوفير الدواء والغذاء لهُ، حتى إذا جنّ الليل الثقيل، وسيطر الخوف والظلام على معالم المدينة كلها، تُحكم غلق الأبواب والشبابيك، تُرخي الستائر، تزيحُ عن غجرية شعرها ذلك الشال الشفّاف، تلقي بجسدها على فراش الحرمان، تتطلعُ عبر خيوط الإنارة الخافتة بسقف غرفتها، تستعيد كما في كل ليلة، بعينين ساهمتين، صور وذكريات زوجها الشاب (هيثم صكر الزين)، الذي قتلته دورية أمريكية على مشارف أبي غريب تُقّلب بصفحات دفتر قصة حبهما الحقيقية.

(هيثم صكر الزين)، الأنباري الذي أكسب أنوثتها راحة محببة وعقلها جنوناً لا شفاء منه، وقلبها حباً لا حدود له، تطفئ الإنارة، تسرحُ في عوالم الذكريات، كان زوجها الشاب هو مَن فكَ طلاسمها العصية، معهُ دون سواه تيقنت من شموخ أنوثتها زوجة لرجل آسر، تتذكرهُ زوجاً ملهماً في حياتها، وحدهُ من أضحكها وأبكاها ورقّصها، وحده من جلب لقلبها سعادة زوجية لا تُوصف، (هيثم الصكر)، زوجها الذي ماثلها بمهابة القامة الفارعة، تهيمُ وسط ظلمة كل ليلة خوف بذكرياتها التي

تعوي في أُذنيها عبر خيوط الظلام، كم أن ذلك الشاب الأنباري المُترع بالرجولة قد أسرها طيلة فترة زواجهما.

يخفت بريق الذكريات بسعالٍ جاف وأنين يصدر من جوف زوجها المُسن وطلبه منها أن تسقيه ماءً، تعّدل وسادته ووضع منامه، تسقيه الماء، تسألهُ إن كان به حاجة للذهاب إلى دورة المياه، يشكرها، يترّحم على والديها، يغطّ في نومه المصحوب بالأنين، ترقدُ إلى جنبه على السرير، تُحسنُ تغطيته، تربّتُ على كتفهِ كما لو كان طفلاً، تتحسسُ براحة كفها هشاشة جلده وعظمه، تمدّ ذراعها تحت رأسه، تجعلُ من ذراعها وسادة لرأسه المتيبس، تقولُ له:

- ليُطيل اللهُ في عمرك يا حاج، لولاك لنهشتني الذئاب، يمدّ لها يدًا متخشبة أرهقتها الشيخوخة وأضعفها المرض، يضغطُ على كفها بحنان، يجذبهُ إلى فمه، يطبع قبلة على جلده الناعم، يترحم على والديها من جديد، يسعل بقوةٍ، يغرق في نوبة جديدة من الأنين، تنهمر دموعها بغزارة، تنشج بألم، كان زوجها المُسنّ يُعاني من أمراض القلب والسكّري والضغط والبروستات والضعف العام بعد مرور السنتين من زواجهما، إذ ظهرت عليه أعراض الضعف العام بوقت مبكر، أخبرته الزوجة بضرورة مراجعته لطبيب أخصائي، كان زوجها المّسنّ أشبه برماد باردٍ تذرّهُ ليالي الشيخوخة على كيانها، لا شيء غير بَخَر أنفاس شيخوخة بائسة ويَبَسِ أصابع لا دفء فيه، لا شيء غير تضاريس جسد هدّتهُ الشيخوخة وأرهقتهُ الأمراض، هي لم تُحب ذلك الرجل، لكنها أيضًا لم تكرههُ ولم تعمد إلى خيانته رغم احتياجها لذكورته زوجاً.

كانت تُشفق عليه لكبر سنه، وتحنق عليه كلما اندسّت معه تحت غطاء الزوجية، عساها تُشيعُ فيه دفئاً، لكن قلبها سرعان ما ينبضُ بانكسار موجع كلما وجدتهُ يرمي بالغطاء ويعطيها ظهرهُ ثم سرعان ما يغطّ شاخراً بنوم يشبه الاحتضار، تاركاً لها وجع أن تتأمل خرائب ظهره الذي هدّته الأمراض، فتهرب إلى النعاس والهدوء والاستغفار، لتعود صبيحة كل يوم جديد فتكتفي بلعب دور ربّة البيت التي تحرص على أن يكون كل ما في بيتها نظيفاً ومُرتباً، كانت تُعوضُ حرمانها بإيمان فطري تُجّسدهُ في لجوئها المستمر إلى الصلاة والاستغفار، وإهداء الثواب إلى (أبي حنيفة) و(الشيخ الجيلاني)، وعمل صواني الشموع وأصابع الحلوى على محبّة (خضر الياس)، وهي اللحظات التي تتجلى فيها واقفة بين يدي الله ليُنجيها من كارثة الوقوع في المحرمات.

كان ذلك يمدّها بطاقة غريبة وشعور وجداني تجاه زوجها المُسنّ فتحرصُ على الإخلاص لهُ رغم المعاناة، هي أيضاً تحرص على تقديم نوعيات طعام جيدة لهُ، حرصها على تناوله للأدوية في المواعيد المحددة ومن ثم بذل الجهد لإدخاله الى الحمام وتحميمه بالماء الدافئ الذي يستهويه ويُحبه، سلوك زوجي دأبت عليه، كان يمنحها شعوراً مريحاً وراحة بال وضمير وإحساس عالٍ برضى الله عنها حتى وإن كان هذا الشعور الغامر يُعَكّر بحالات حزن مستمر.

الأوضاعُ في تأزم مستمر، الأهالي قطعوا الطُرقات العامة، نصبوا خيامًا للاعتصامات في ساحات الأنبار، ثمة معارك شرسة تزحفُ على المُدن، النهاراتُ شحيحة، الليالي مخيفة، الشوارعُ مشرعةٌ على موتٍ أكيد، لا شيء سوى أزيز الرصاص ودوي المدافع وهدير الطائرات، التكبيرات الناعقة تشقُ صمت الليل، الأنفسُ تذوي وهي تغطسُ كل ليلة في ظلام الكراهية؛ لا شيء يدعو إلى الاستقرار.

بغداد/ الشعب/ حي أور / ٢٠١٣م

عاش د. سليم عبد الصمد، رجلاً عذباً، جميلاً بكل شيء، مسكوناً بحكايات الجنوب، يكتب عن الإنسان والأهوار، الحرف والطين، الامتداد المُوغل، يغبطه الأصدقاء على ذلك القلم الرشيق الذي يغلفه بحزن معدان جنوبي ضارب في جذر الحضارات الغابرة، كان مثقفاً سبعينياً في أواسط الخمسينيات من العمر، بارع في مزج ثقافته العامة بتحصيله العلمي كأستاذ جامعي، قاص ومترجم لا يُشقُّ له غبار، ينحتُ كلماته نحتاً، يُجّمعُ تفاصيل الناس فوق قماشة الحدث بريشة رّسام محترف، جُملٌ يمكنُ عدّها تنتمي إلى التشكيل أكثر من انتمائها إلى الأدب، يُقرأُ بمتعة، فتستشعرُ دفئها معه حدّ الشعور بمجالسته في البيت أو المقهى، كتلةٌ من أحزان جنوبية مستشفةٌ من أوجاع الناس، يخبؤوها بين طيّات نصوصه المُتفجرة ليفتح شاشة المُخيلة على حكايات الجنوب صادقة الطرح فلا تبرح الذاكرة بسهولة وهي تجمع بين كل جمالات ومتناقضات النفس البشرية بما يشبه الانتفاضة والصرخة خارج إطار الوعي المُسبق.

يعرف بخبرة الرجل العارف متى ينحت حكاياته ببديهية «أن الإبداع مؤلمٌ وجارح» رجلٌ رِبعة يحمل سمار الرغيف بذلك الشعر المتدرج بنُتفٍ فضية اللون،

وطيبة تنبع من قلب أبيض رقيق عاشق مقبلٌ على الحياة رغم قساوتها.

أروع ما عُرف به بين الأصدقاء، قصة حبه الكبرى، وحيدة الجانب بفتاة ميسانية، بسببها أطلق الأصدقاء عليه لقب (سلمان العاشق) حتى بعد تخرجه وزواجه مقترناً بامرأة أكاديمية رائعة وتكوينه لأسرة يتمتع أفرادها بصفات استثنائية من الوعي والكرم والبساطة والمرح.

قصة حب طاهرة لم يهنأ بسببهم براحة أو نوم، عمراً كاملاً، لذلك أرشفّ بمجوعة قصصية ورواية مبهرة، كانتا تحويان الكثير من تفاصيل حبيبته وتفاصيل حبهما معاً.

كانت ميسان هي المحافظة التي سفحت دم العشق في قلب الشاب سليم عبد الصمد في الفترة التي عمل فيها مدرساً في معهد مختلط رصين، في سنوات حرب الثمانينيات، هناك شاء لقلبه الغضّ أن يخفق بالحب للمرة الأولى، وحدها الأقدار من وضعت في طريقه تلك الفتاة المنتظرة امرأة من سومر، هكذا وبلا إذن مسبق جاءت إليه من رميم الحضارات فتمكنت منه، جميلة كبستان، شامخة وهائجة كموجة.

كثيراً ما كان يسترجع ترديدها لكلمات مراسيمها المحتشمة وهي تتلوها عليه دون توقف، هي الكائنة الضوئية التي ألهمته برسائلها التي احتالت بها على الزمن الشاخص بينهما، كانت تبعث إليه بالكثير من الجمل الرقيقة كما لو أنها تحفظ قصيدة له، كان سعيداً بخط الحب المتوازي والمتوازن بإيقاعه الهادئ الجميل، لقد منحته سنوات رائعة من دهشة وحنان تسببا بثراء إحساسه الطيب بالحياة، فتاة رائعة تمتلك دون غيرها قدرة فطرية هائلة في التوغل بعيداً عن الفهم واستلال كل الأشياء

الجميلة التي كانت تسكن في دواخله المترعة بالمحبة، كان سعيداً بنقائها وخفرها الذي يأتي بلا تكلف، تتنصت بحنان لانسياب وانسكاب كلماته في أذنيها انسكاب الشلال على العشب الندي، معها فقط وعلى امتداد سنوات اللهفة الجميلة يكاد يتملكه الإحساس بشاعريته وتفننه بترديده لتحية الصباح، في كل اللقاءات القصيرة المحتشمة التي حصلت بينهما في الأحلام والتخيل والواقع، كان يستعذب انتشاءَها بكلامه المنمق الذي يهيمن على مسامعها وأحاسيسها، كل ما كان يجمعهما صدقٌ في صدق رغم حجم الخوف وكارثة أن تقع تحت طائلة وانظار الميسانيين، عاش يلهج ويهذي في حضرة تلك الحبيبة وفي غيابها، كانت تستعذب مسألة أن تُرضي له كل شيء دون أن تنسى أمر إعادته إلى صوابه كسيراً من حالة نفور غير متوقع سببه طبيعة تربيتها الجنوبية الريفية المحافظة، هي لم تُحب رجلاً كما أحبته، وهو لم يحب فتاة كما أحبها، بعلاقة طاهرة شابها السلوك الحسن المتبادل بينهما.

عوّض كل حرمان بالكتابة المستمرة لها، كان يمنحها عبق الحروف وسحر الكلمات، فتقابله بكرم تمنحه متعة فرصة العيش بحالة تعطش منتظراً من يفتح له أبواب الجنة بمفاتيح الصبر. قصة الحب هذه المتغلغلة والآيلة للسقوط والتلاشي أمام أبسط هزة اجتماعية جعلتهما يتبعثران حتى كادت الحيرة تأكلهما، كان يتبعثر كلما وجد نفسه في حضرتها دون أن يستطيع قول أو سماع شيء، كان كلما لقيها غادرتهُ القدرة على الإتيان بأي شيء، أي فعل أو ردة فعل، غير استراق لحظة تأمل في تفاصيل وجهها بريء القسمات.

ترنو إليه كما لو كانت ترنو إلى عوالم حلم ممتد لا انتهاء له في ذروة العلاقة، شاء للعِرق القبلي والاجتماعي أن يحضرا خُطبتْ البنت لأحد أبناء عمومتها، وحين

رفضت على غير المتعارف أُثيرت حولها الشُبهات وشاعت قصة حبها مع ذلك التدريسي الشاب الوافد من بغداد، ليتهدم كل شيء بلمسة من سيناريو حياة أحال الأحداث إلى ما يشبه حكاية لفلم هندي، تزوجت الفتاة بالإكراه، ورجع الشاب البغدادي العاشق إلى عاصمته وهو يحمل الكثير من جروح الوَله التي أُثخنت بها روحه، عاد وهو لا يحمل معه غير عدّة الكتابة والكثير من الذكريات وصورة صغيرة تحمل تقاطيع وجهها الذي صار سببًا في الوجع الذي ألمَّ بقلبه على ذكريات حبها، أصبح الشاب التدريسي شاعرًا وقاصًا ومترجمًا وباحثًا، ونال درجة الدكتوراه في علم النفس، لا لشيء إلا لكي ينسى، فلقد أصبحت محبتها غصّة في حنجرته وقلبه وروحه، فأحالته إلى رجل مُطفأ، كان سؤاله الوحيد بعد كل تلك السنوات الطويلة، سؤال يكرره كل يوم:

هل يمكن أن نلتقي مرّة أخرى؟

في مساء ساكن لأحد الأيام تلقى د. سليم عبد الصمد، رسالتين عزيزتين متتاليتين، من صديقين عزيزين على قلبه، عبر موبايله وحاسوبه الشخصيّ في ليلة واحدة.

كانت الرسالة الأولى من صديقه الروائي سنان بطرس متّي، جاء فيها:

- صديقي اللدود د. سليم عبد الصمد المحترم، تحيةً بحجم فوضايَ وبعد، فزتُ هذا اليوم تمام الرابعة صباحًا على صوت هاتف يهتف بي:

(نحن الذين نكتب للآخرين الإنسانيين يجب أن ندرج على تقبيل أيدي بعضنا البعض، أما الذين تلطخت أيديهم بدماء قتل الأبرياء فالأولى بهم أن يخفوها في

جيوبهم بانتظار أن يقطعها الباسلون لهم)، السؤال يا صديقي: على ماذا يندرج هذا الأمر، لطفًا؟ يبتسم د. سليم بطيب لرسالة صديقه الروائي سنان بطرس متّي، يكتب له على الفور:

(اطمئن يا صديقي، المسألة عادية جداً، سأشرحها لك في أقرب وقت ممكن، سأحرص على تقبيل كفيك أينما نلتقي) المخلص سليم.

ثم يشرع بقراءة الرسالة الثانية التي تلقاها أثناء محاضرته الجامعية الثانية. كانت من صديقه الشاعر طاهر عاتي، المغترب في مدينة (كولد كوست) الأسترالية منذ سنوات، رداً على الكتابين المهورين بتوقيع د. سليم كعربون صداقة، كان الأول كتاباً أنثروبولوجياً مترجماً عن تاريخ الأهوار الجنوبية في العراق الضاربة في الجذر السومري، بينما كان الثاني كتاباً قصصياً استلّ طاهر منه قصة واحدة أرسلها الى مقاطعة مونتريال الكندية، محل إقامة شاعر العراق المغترب (عيسى حسن الياسري)، الذي قرأ القصة وكتب عنها:

صديقي الشاعر المغترب طاهر عاتي، المحترم.

(إذا كان التاريخ وكما يرى بعض النقاد هو بيت المبدع، فالمكان هو وسيلته للسفر عبر تلك الجهات التي تتعمد بفرح الإنسان وانكساره معاً، وقد وظّف القاص المكان في قصته بطريقة تتآزر فيها المخيلة مع تضاريس الواقع، وربما يأخذ عليه البعض مواضيع قصصه التي تبدو مألوفة ومطروقة أكثر من مرة، إلا أن ما يُميّز د. سليم عبد الصمد أنه اختار زوايا خاصة جداً تحمل بصمته الشخصية وهو يرسم لنا هذه اللوحات المصغرة بأكثر هموم الإنسان وجعاً.

نحن نعرف أن المبدعين لم يتركوا موضوعاً لم يطرقوا بابه، لكن يبقى الجديد

دائما هو الأسلوبية المميزة التي يواجهون فيها مواضيعهم، وهذا ما حقّقهُ القاص، كان مؤثر جدًا.

له تحياتي).

لم تسع الفرحة د. سليم عبد الصمد فكتب إلى صديقه طاهر ليلاً عبر الخط الخاص لماسنجر شبكة التواصل الاجتماعي:

- طاهر عاتي!! هل هذا ما كتبه عيسى حسن الياسري؟! -يرد طاهر عاتي-
- نعم يا صديقي، وأقسم.
- عيسى حسن الياسري؟ ! هل أنت متأكد؟ عيسى حسن الياسري! يا إلهي!
- نعم دكتور، كبيرنا الياسري. -يرد بفرح-
- شكرًا لهُ، ولكَ، دمتما بخير.

يُعيدُ قراءة التقييم وليس في رأسه غير الوقع الجميل لكلمات الياسري (أن ما يميز د. سليم عبد الصمد إنه اختار زوايا خاصة جداً تحمل بصمته الشخصية وهو يرسم لنا هذه اللوحات المعفرة بأكثر هموم الإنسان وجعًا).

ما أن انتهى د. سليم من قراءة الرأي النقدي للشاعر العراقي المغترب (عيسى حسن الياسري) حول نصّه القصصيّ، حتى جافاه النوم، لجأ إلى الأوراق والقلم، وشرع يكتب قطعة سردية غاية في الجمال، ولم ينته منها إلا قبل صلاة الفجر بقليل.

بغداد/ الكرادة داخل

مقهى لأجيال الضياع

يُسهب الروائي سنان بطرس متّي في الحديث إلى نفسه متعرياً أمام مرآة الضمير... حسنٌ، يمكنني مع حجم القرف الحاصل، أن أجيب على سؤال بُتّ أوجهه لنفسي صبيحة كل قلق جديد:

هل أنا عاقلٌ، أم مجنون؟

يجيب نفسه وهو يطالع الوجوه الكثيرة التي تُثرثر داخل المقهى بلا هدف أو جدوى:

- عاقلٌ بالإرث الذي منحتني إياه عائلتي بمحذورات مخافة الربّ، دون أن يعلموا شيئـاً عن مغامراتي الطفولية السرية التي ما تعدت السرقات الغبية ومشاكسة الأصدقاء من أترابي، والهرب من طقوس قداس الأحد الذي أُجبرُ على الذهاب إليه.

عاقلٌ، بما منحتني إياه المدارس من أخلاق وعلوم، على الرغم من كوني كنت

من الشلل القليلة المشاكسة ونحن نسرق لفات العنبة المشطورة إلى أرباع وأنصاف الصمون من صينية «أم جوني العمية» ونسرق أقلام ودفاتر الأصدقاء الهادئين، ونكسر كل ما تقع عليه أعيننا من المقاعد الخشبية الدراسية، زجاج النوافذ، خربشة السبورات، العبث بنقاط الإنارة والمصابيح وصنابير المياه، غلق فتحات المرافق الصحية، وضع الطين على زر أي جرس حكومي أو بيتي ليستمر بالرنين مسبباً الإزعاج لضحايا عبثنا، كنا عابثين ومشاكسين ومهوسين بالشيطنة والميل إلى الروح الإجرامية إلاّ أن تعاقب الفصول الدراسية وعبقرية وصبر المعلمين الذين أصّروا على تعليمنا وتهذيبنا كانت أشياء كفيلة باكتسابنا للكثير من الأشياء الإيجابية، فانعكس ذلك علينا بعد أن غادرنا عبث الطفولة وتركنا أصواتنا هناك، تصرخُ في وادي الذكريات.

تُزعجهُ الثرثرة والجو المختنق بالدخان، ينهض بتثاقل، يتجه صوب الحمامات الصحية، يغسل وجهه، يُصفف تسريحة شعره الأشقر، يتمضمض ماءً، ينثر رشح أنفه، يعدل من هيئته، يخرج من جوف المقهى وسُحب الدخان، يتوجه إلى رحم الشوارع الجميلة لكرادة مريم دون أن ينقطع عن سيل التداعيات (نعم نعم أنا عاقل، بكل ما منحتنني إياه الثقافة المُكتسبة من شغيلة المصانع ومثقفي المقاهي والصالونات الأدبية ومنتديات الشعر العامي ودور السينما وقاعات المسارح والموسيقى وفنون التشكيل وأجيال الوعي ودفء الأدب الروسي ورومانتيكية الأدب الإنكليزي وقتامة الأدب الألماني وغرائبية وسحرية الأدب اللاتيني وحلاوة ومرارة الأدب العربي، وروعة الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ ونظريات السياسة وموسوعات الحروب والعلوم وتراجم اللغات وميثولوجيا الأديان، وبداعة فنون

التشكيل والموسيقا والمسرح والسينما ونجوم الأجيال وعمالقة الابداع ونجوم الرياضة وقداسة الشهداء على اختلاف مشاربهم.

عاقل أنا، بقصة الحب الأولى التي ابتدأت هادئة ومباغتة، نظرات خجولة وابتسامات وهدايا بسيطة لم تتعدَ سلاسل وقلائد وخواتم الشِبه ورسائل الهيام الخجلة بمشاعرها الرقيقة والبريئة والأحلام العريضة وخيالات الجواد الأبيض والفارس الهُمام والثياب البيضاء والمروج الجميلة والمطر والستائر المخملية وعرائش أسرّة الحرير، تلك الأشياء التي لا وجود لها في الواقع الرازح تحت عباءة الفقر، وبيوتنا التي تهددها الرياح والأمطار وعواصف الصيف المُتربة لتنتهي تلك القصة بالهدوء نفسه، عندما تزوجت الحبيبة بابن عمها الغني الذي طار بها إلى الشمال ومن هناك إلى المهجر.. صوفيا يا وجع السنين.. هههههه.. ما زال خطابكِ طرياً يا حبيبتي. خطابكِ المضمخ بقطراتٍ من دموعكِ ودمائِكِ وقسمكِ الصادق بعدم الخيانة والنسيان والرجاء المؤدب باسترجاع الرسائل والهدايا والصور الشخصية المُعزّزة بقلوب الحب المُخترقة بسهمين متقاطعين واسمين معلقين بقطرات الدم المتساقطة من أسفل القلب وصورتنا الوحيدة أمام تمثال سيدتنا العذراء مريم وتواريخ أيام وشهور وسنين لا تنسى بسهولة.

لكِ المجدُ جميلتي، هل تذكرين؟

هكذا انتهى كل شيء بهدوء ونقاء وذكريات وألم ممض تستثيره في النفس تلك الذكريات الندية.. هههههه.. يا للنفاق.. ها أناذا أتحدثُ عن نفسي بمثالية وكأنني رجلٌ ملاك!

- إذاً أنا لستُ بعاقل!

يدور في الشارع الخالي هاتفاً.. أنا لستُ بعاقل.. لستُ بعاقل.

تمرُ به سيارة سباق فارهة تحمل شُبّاناً مستهترين، يستقبلوه بصفير الاستهجان والأصوات المُنكرة والكلام البذيء، يقفُ لهم بإجلال، يُؤدي لهم تحية عسكرية، يخاطبهم:

- مرحى يا شباب.. أهلاً بأجيال الفوضى والضَياع.

يجلسُ على قارعة الطريق، يبكي بحرقة، يتمتم بألم.. أنا لستُ بعاقل.. إذًا أأنا مجنون؟

يُجيب... نعم أنا مجنون.. بكمِّ الصور الهائلة والأحداث الجِسام التي تحتفظ بها ذاكرتي المشتعلة مُذ تسلق ابن صبحة دفّة حكم العراق ليجعل من كل شيء حطاماً وعذاباً وخيبة ذاكرتي تكتنز الكثير من جرائم البعث وحروب الطاغية الخاسرة في كردستان وإيران والكويت، والحصار وويلاته وجرائم وغزو الأمريكان وكيف أن هذه المراحل قد أحرقت وأكلت كل شيء، الأصدقاء، الأهل، الأحبة، المُدن والثروات، وكيف أن الجوع قد سكن في أجساد وأرواح الناس حتى صارت الناس والكلاب والقطط والفئران تأكل من صينية واحدة بعد أن أنسى الجوع مخاوف هذه الكائنات بعضها من البعض الآخر وعداءَها المشترك، وكيف أن الإنسان صار يلبس ثياب الموتى ويسحق ويطحن نوى التمر الفضيخ ليصنع منه طحيناً لأرغفة لا تُؤكل. وكيف أنه صار يسرق ويحتال ويجرح ويقامر ويقتل ليعيش، وكيف أن الماء اختلط بدماء ضحايا الحروب في الجبهات التي تمتد على ضفاف الأنهار والبحيرات

والجداول وضحايا المثرامات المخصصة لتقطيع لحوم أعداء الحزب والثورة.

الذاكرة تكتنز كيف أن المقابر لم تعد تستوعب أعداد الموتى وأن القفار صارت مقابر الشرفاء، وكيف أن النسوة صارت تسرق وتقتل وتحتال وتبيع أولادها لأثرياء وتجار الحروب، وكيف أن الأمهات صرن يأكلنَ أثداءَهُن لسد الجوع في أفضل الأحوال، وكيف أن بعض الأطباء كانوا قد افتتحوا تجارة للموت بالاتفاق مع بعض المجرمين الذين يختطفون الأبرياء عن طريق التخدير ثم يبيعونهم إلى هؤلاء الأطباء الذين يقومون بدورهم بتشريح جُثث المخطوفين الأبرياء وسرقة أعضائهم البشرية ومن ثم الإتجار بها لمصلحة الأغنياء والرجال المسؤولين.

تمتم بغضب:

- أنا من بقايا ملايين بشرية بائسة شهدت كيف أن مجتمعاً محافظاً ومثقفـاً قد تحول إلى مجتمع مُنحل وجاهل على يد رجل وأحد كان اسمه الطاغية.

يتكئ على جدران مسجد قديم، ينظر إلى علو منارته المائلة، يخاطب المنارة:

- ليل الجلادين طويل

يلوّحُ بيديه يميناً وشمالاً، يتراجع عمّا ثرثر به طيلة مسيرته المتعرجة وقد هدّهُ التعب، يقول بحزن:

- كلا.. كلا.. أنا عاقل.. أحاول جهدي أن أحتفظ بعقلي عسى أن أوفق بتوثيق كل هذا الخراب الذي حلَّ بالناس عندما تحولت دور العبادة إلى ترسانات للأسلحة والمدارس إلى فرق حزبية والحدائق العامة إلى ساحات

للإعدام وقاعات المسارح إلى معتقلات للتحقيق. يا للمراحل التي شهدتها عن كثب.. حقبة البعث.. الاحتلال.. وقائع ما بعد أزمنة الدم- قراطية، انهيارات البلد السائر إلى حروب إبادة جماعية، كل هذه الأحداث العاقلة لابد أن تقود العقلاء إلى الخَبَل.

من أجل هذا كله استهوتني فكرة أن أكتب، لكن ما الذي يمنعني عن الكتابة؟ ألستُ بمثقف؟ أنا مثقف، ولي من الأصدقاء المثقفين من كتّاب وفلاسفة وشعراء الكثير الكثير، سأناقشهم، جميعاً حول أهمية التوثيق بعيداً عن جدل التجنيس. سأقرأ كثيراً، متسلحاً بفكرة أن من يقرأ كثيراً يكتب جيداً. حسنٌ حسن، لأكتب، منذ سنين وأنا لا أمارسُ شيئـاً غير التسكع المُمل وتجارة بيع الكتب والقراءة، الأحداث والمدن والناس المعذبون المادة الدسمة لروايتي. سأختار لها اسمـــاً مميزاً يشير إلى المضمون، وسأسهب في التفاصيل عبر حكاية ما أو مجموعة من الحكايات القابلة للتحليل، سأضمنها أزمنة ووصفاً وحوارات، سأجعلها أقرب شبهاً بفيلم سينمائي وأعلمها بشخصيات ووظائف وجُمل تغرف من روح الشعر، سأجعل خطابها إنسانياً. أعرف إنني سأعاني كثيراً وربما سأفشل، لا سيطرة على الأحداث، لكن يكفيني شرف المحاولة، سأحاول كسر الحاجز الذي يفصل بين عقل ثائر وجنون مستكين لأصل إلى الجواب الشافي الذي ستفرح به مرآة ضميري جدًا، يومها سأجيب بثقة:

نعم أنا مجنون

مجنون لأنني ركبتُ مركب العقل وحاولتُ أن أخترق جدار العذاب الصلب الذي تتلاطم بين دفتيه أرواح الأبرياء بحثاً عن الخلاص.

لم يجد فكاكاً لفوضى رأسه المكتظ بالصور والأحداث والحوارات الداخلية المستمرة التي شغلته بداية الليل، ليله المقترب من الثانية صباحاً، يجلس في ظلمة متنزه قديم، يشعر باسترخاءٍ عجيب وهو يتحسس علبة سجائره المخبئة بالجيب الخلفيّ لبنطاله الكاوبوي القديم، يغفو قليلاً، يستفيق على أصوات كلاب سائبة تجوب المتنزه بحثاً عن بقايا طعام، ينتعش لبرودة المكان وللعتمة التي أحاطت به من كل صوب، الجمود يلف الأشياء والمعالم كلها، ارتجاف الصمت يمنح الليل المقترب من الإصباح كآبة غريبة وحاجة مُلحّة الى الضجر والبكاء.

الأشجار بأغصانها الجرداء تمنح المكان وحشة، صمت مريب، مصابيح ذاوية، معالم تركها الناس خلفهم وذهبوا ليندّسوا في مخادع نومهم وهم يحلمون بيوم جديد يحمل الرتابة نفسها.

بعد مضي أكثر من الساعة ينتبه سنان بطرس من اغفاءته التي اندكّ بها على مقعد خشبي مستطيل وسط ذلك المتنزه المهجور، يُسقط رأسه بين فخذيه، يحتلّ الخدر يده اليمنى التي تسقط هي الأخرى بارتخاءٍ كبير، يشع وجهه حزناً وحنيناً رغم السأم والظلام وهما يلفّان المكان تماماً .

استذكر تفاصيلاً أخرى لمشروعه الروائيّ يُشغلُ بها تفاصيل ليله الممتد وقد نُسج قلبه بوحشة الشوارع، يتبحر في المساحات شُبه المُضاءة، ثمّة رغبةٍ ببكاءٍ مُرٍ تسيطر على مشاعره في وقت كانت الموجودات فيه قد نامت تماماً وسط جفون الصمت والظلام فلم يعد يلمحُ شيئًا أو يُنصتُ إلى شيء غير صوت الصمت بطنينه الثقيل وجُلبة نواياه، يُعلن بألمٍ ممض عن جوعه وحزنه وانكساره في عوالم ذلك الليل

الذي يكاد ينتهي وقد نَدُرَ تواجد أحد غيره قبل أن ينبلج نور الصباح معلناً عن نهار قلق جديد.

ثمّة أوجاع تسببها السياسة للناس، يتحول أنين جوعه إلى نشيج ثم إلى بكاء له لون وتفاصيل لوعة الفقراء المساكين والمهمشين، يفركُ عينيه مندهشاً، يقرصُ فخذه مخافة أن يكون واقعاً تحت تأثير تهيؤات أحلام اليقظة، فعلى مقربة منه، تماماً عند إحدى الزوايا المظلمة تقف شابة جميلة بقلب مُعتم وعقل شارد وضائع، يلفها الخوف والصمت وتهزها ريح السَحَر مثل عشبة ندية، يضحك بمكر، يبتسم بوجهها، يُشير لها بتحيةٍ ظريفة، يشعر بارتباكها وهو يراها تجّمع طرفي قميصها لتغطي مفاتنها بخوف جلي، يهتف بها مُرّحباً:

- اهلاً.. صغيرتي.... -لا ترد-

يسترسلُ في ترحيبه:

- قديمًا.. عندما كنت أجلس أو أسير في الظلام... كانت حقول الألغام والملاجئ والسيارات المصفحة والحجر القاسي هي الأشياء التي تعترض طريقي، كم هو جميل أن تكوني في طريقي أيتها الصغيرة الساهرة؟

يطبطب لها بكفه على المسند الخشبي، يطلب منها الجلوس بقربه، تطمأن لبساطته، تتقدم إليه جارّة أقدامها جّرًا كما لو كانت متلبسة بالخواء. -يسألها-

- مُتعبة؟

يفسح لها مكانًا لتجلس عليه، تجيبه وهي ترمي بجسدها المُنهك على المقعد

الخشبي القديم:

- أجل، مُتعبة. -يسألها-

- ممّن؟ -ترد-

- منكم. -ينهرها بغضب وبصوت مسترخٍ:

لا لا لا، أبدًا، لستُ منهم صغيرتي، لستُ منهم

تتفرس في تقاطيع وجهه المجهد كما لو كانت تتفرس في تفاصيل كون شاسع غريب، تحاوره:

- هل أنت مُهجّر أم مشرّد ؟ -يرد بحزن-

- كلا لستُ مُهجرّا ولا مُشردًا، أنا موجوع من كل شيء، الناس والحجارة والحروب والعجلات العسكرية وداعش.

تسأله:

والحب؟

الحرب.. صغيرتي.. الحرب.

- الحب؟

- الحرب.

- تبدو طاهر القلب.

- قلبي كما لو كان عصفورًا يتوق للتحليق في الفضاء الواسع.

- أنا عكسك تمامًا، أحمل قلبًا مبعثرًا، وعندي شظية من كل فؤاد.

- تبدين منكسرة؟ -يسألها بضحكة تشبه البكاء. - ترد:

- هههههه، أنا موجوعة مثلك، فتاة يتيمة مسكينة، رمتها الأقدار خدّامة في بيت يعود لأحد المسؤولين.

- يُفترض أن تكوني سعيدة، إنهم يدفعون مرتبات جيدة، فضلاً عن مسألة حصولك على سقفٍ تستظلين به .

- كل ما سمعته عن الخدمة في بيوت المسؤولين كذب في كذب، ليس سوى الامتهان .

- امتهان؟

- نعم امتهان، إن لم يكن منه ومن أسرته، فمن رجال حمايته.

- يرد بحزن:

- هل أفهم أنك، -تقاطعه:

- أجل، وأقسم أنا اتعرض لمضايقات من قبل رجال حمايته ليلًا، أما في الصباح فعليّ تحمل قرف زوجته وبناته، وتلميحات أولاده.

يمسك بكفها، تسحبها بهدوء، يقول لها:

- يبدو وجهكِ متعبًا .

- ترد:

- أنا متعبة عمو .

- يسألها:

- هل...

- لا.. لا.. ليس الأمر كذلك، لكن الليلة حاول أحد رجال الحماية اغوائي، وحين رفضت بقوة وأقسمت له أنني فتاة شريفة ويتيمة كل همي إعالة أمي المريضة وشقيقي المعاق، لذلك نصحني بالهرب من الباب الخلفي الليلة، قال لي:

- إن اخترتِ البقاء عند هذا المسؤول لا اضمن لك أن تكوني كذلك، هو رجل كبير، أما نحن فعشرة أشداء.

- يا له من رجل حماية شريف

- كلهم يدّعون الشرف.

يضحك بمرارة، تضحك بألم، ترتفع ضحكاتهما كما لو كانت نشيجًا مُرًا، يُشعل سيجارة، يأخذ منها نفسًا عميقًا، ينفثهُ عاليًا، ثم تشتكي إليه باكية:

- منذ سنين طويلة، لم يسمع صراخي أحد، ما ذنبي إن وُلدتُ يتيمة؟

- يشكو لها:

- منذ زمن بعيد، بعيد جدًا ابتلعتني الأراضي الموحشة وأنا أُقاد هناك أعمى البصر والبصيرة لا شيء يحكمني غير أمر واحد إن لم تَقتل تُقتل.

- تجيبه بصوت واهن: سلوكياتهم سحقتني.

لم أخلف ورائي على تراب وحصى الأراضي الموحشة القاسية سوى الجثث والآليات المتفحمة، لا صوت يُسمعُ هناك حين يُزمجر صوت الحرب.

- عشت ولا زلت أعيش بقلق وخوف.

- الجميع نيام، القتلة والمقتولون، الظَلَمَة والمظلومون.

- نعم، الجميع نيام كما لو كانوا ملائكة، حتى إذا ما وُلِدَ النهار عادوا ليكونوا ذئابًا متوحشة.

تنهض منكسرة، يسألها:

إلى أين ستمضين؟

- سأمضي إلى بيت خالتي التي تؤويني أنا وأمي وأخي المعاق، بأمنية واحدة، أن أنام فلا أستيقظ أبدًا.

أتساءل:

- لِمَ حاربنا لِمَ لا نزالُ نحارب؟! إن كان من نحارب من أجله يريد لنا أن نكون عبيدًا لهُ؟!! يطلقان ضحكة موحدة -ترد:

- وأنا اتساءل، لِمَ تموتون، إن كنا سنكون جوارٍ للسلطان؟

- لا جواب عزيزتي، كلنا نقف فوق خط سخام واحد.

- صدقت، لهذا نجد أن العتمة في كل مكان، وهذا يعني أن السماء قد أغلقت كل أبواب الرحمة والخلاص.

- لا خلاص مع الحرب.

- الحرب والظلم يا سيدي.

تبتعد مترنحة، يقول لها وهو يراقب طريقة مشيها التي تنمّ عن التعب:

- إلى أين؟ إبقي قليلاً:

- دعني أذهب كي أنام، عسى أن أنسى أو أموت.

- وماذا ستنسين يا صغيرتي.

- أنسى أن الخلاص في الحب، ولكنه لا يتوفر.

تغيب ملامحها وسط غابة الضباب الذي أخذ يتكاثر مع اقتراب ولادة الفجر، يستسلم لنوبة من البُكاء المرير مُردداً:

- لا خلاص مع الحرب، الخلاص في الحب، لكنه لا يتوفر، أيُّ حكيمة هذهِ؟! ينهض مضطربًا، يستنشق خيطًا من هواءٍ بارد، يهتف بصوت جلي:

- كل الأشياء تبدو عابرة إلا الحرب فهي مُقيمة حتى وإن انتهت.

يتبع خطوات الفتاة، يتمنى على الله أن يلحق بها ليجعلها صديقة له تشاركهُ

أحلام الشُقّة التي يقطن فيها، يحدَّث نفسه وهو يبكي بانكسار:

- ماذا لو قبلتْ بي صديقًا؟ سأدعو الله أن يغفر لي ولها، سأجعل منها سيدة محترمة، واتّخذها صديقة لي، وأبحث لها عن فرصة عمل محترمة تأكل منها لقمة الحلال، إن لحقت بها سأتوسل لها أن تقبلني صديقًا يكون لها بمثابة الأخ والصديق الوفي، سأجعلها تنام في شُقّتي مطمئنة، وسأخبرها بضرورة أن تتزوج.. شريطة ألا تنجُب ولدًا، لأنه سيُزجُ بهِ يومًا في حربٍ قادمة جديدة، ليُقتلَ بعدها بدمٍ باردٍ ليهنأ غيره بلذة العيش!! سأخبرها كيف كانت جدران البيوت التي آوتنا لا تستقبل أحدًا غير أبي، الذي تعود أن يكون عابرًا للأماكن فاعتزل الناس وتعوّد الفرار إلى أمل مجهول ثم مات قبل أن يُعثر عليه، بعد أن هُدِدَ بالقتل لأنه كان يمتهن بيع الخمور.

كوني صديقتي أيتها المُستباحة الصغيرة، وسنبحث معًا عن الخلاص من خلال الحب الحقيقي الذي سنتنفسه ونعيشه، ونحن نستعرض قسوة الماضي، ونخطط للمستقبل وسط الركام، سنثرثر طويلًا عن البدايات والمصير حتى نصل الى عدم إخفاء أي شيء عن بعضنا البعض لنكون كتابين مفتوحين أمام ضميرينا، سنستمتع، ونعاني، ونعقد عهدًا مع الموت، رغم الجوع والخوف، وحقارة الحرب القادمة رفقة السيوف والكواتم، وسنبارك لعلاقتنا المُنزّهة عن أدران الجسد، سأتزوج حبيبتي المتدارية خلف ستارة نافذة غرفتها، وسأختار لك زوجًا طيبًا لا يحمل مسدسًا كاتمًا، أو يُشهر سيفًا باسم التكبير، سأختار لك زوجًا يُحبُ العمل والناس، وسنصل الى حقيقتنا الأخيرة، أن الخلاص في الحب، وإن ضمان نوعينا من الأولاد والبنات سيضمنهُ الحب حتى لو مُتنا.

يحث خطاه ليلحق بالفتاة في الوقت نفسه الذي ارتفع فيه أذان الفجر من منارة الجامع المواجهة للمتنزه المهجور، يشعر برقّة في قلبه لكلمة «الله أكبر» وهي ترتفع الى السماء بحنجرة شجية لمؤذن أعمى، يُبصر سيارات مظللة مفتوحة الأبواب ومصابيح الإنارة، يشاهد بصعوبة كتل بشرية تتدافع وتتصارع كما لو كانت في نزاع شديد، يُميِّز صوت ذلك الصراخ، كان صراخًا أنثويًا، والجَلَبة سرعان ما تكشفت لديه عن ثمانية ذئاب بشرية تنهشُ جسد الفتاة التي لحقوا بها، كانوا يصرخون بها ويقرعونها على هربها من البوابة الخلفية لبيت المسؤول، هي المُلزمة بالمبيت لقاء أجرها كخادمة له ولأسرته، يراهم يفترسونها بلا رحمة ركلاً وصفعًا وجرًّا على الإسفلت، تارة من شعرها وتارة من أطراف ثيابها، يستولون على حقيبتها، يستبيحونها، يبصرها تستغيث دون جدوى وهي تراهم يسرقون منها المال القليل الذي كان في حوزتها.

يبصرها كائنة هشّة ضعيفة المقاومة، مسلوبة القوة والإرادة أمام قاماتهم المديدة وقسوة أذرعهم المفتولة العضلات، لا تملك غير الصراخ المتزامن مع صوت الأذان وهو يترنم بحيّ على خير العمل، كانوا قد استفردوا بها خلف جدار الجامع، يتقدم صوبهم راكضًا وقد أطار الموقف صوابه، رفع الأول عن جسدها، لكمه بقوة وأسقطه أرضًا، ثم سحب الثاني ووجه له ضربة رأسية قوية، استشاط غضبًا وغيرة وهو يسمع استغاثتها وطلبها النجدة منه، لم يكن يحمل سلاحًا، وجد نفسه أمام فوهتي مسدسين وسكينتين حادتين إلتمعتا أمام وجهه، ينتبه متأخرًا إلى قسوة اللكمات واللطمات للأذرع القوية التي تناوشته بقسوة، فيما اكتفى الآخرون باغتصاب الفتاة بوحشية وبلادة، ينزع قميصه، يلفه حول كفه وذراعه ليقاوم الطعن، يصدر عن الفوهتين صوت إطلاقتين ناريتين في الهواء كانتا كافيتين لوقوفه عاجزًا عن المواجهة،

ينسحب إلى الوراء عدّة خطوات.

يتناهى إليه صوت خشن ملؤه الشر:

- تراجع أيها المُشرّد الحقير، الإطلاقات الأخرى سنفجرّ بها رأسك.

قال لهم بيأس:

- فقط اتركوها حبًا بالربّ.

لم يُجبه أحد، تركوا الرصاص هو من يقرر حسم الموقف، إطلاقتان بين قدميه، مثلهما فوق رأسه، إطلاقة عن يمينه، سادسة عن شماله، ست إطلاقات غدر كانت كافية لإدخال الرعب على قلبه، يستدير هاربًا، ينهمر الرصاص الاستفزازيّ خلفه، يختفي صوت استغاثة الفتاة، بينما تتناهى إلى سمعه أصوات التكبير والصلوات عبر مكبرات الصوت المنتصبة أعلى المئذنة، يستذكر كيف كان يركض في الجبهة مدبرًا وهو يحدث نفسه: العدو يتقدم صوب خط المواجهة بأعداد هائلة لا سبيل لمواجهتها، من الغباء أن يموت المرء بمعركة غير متكافئة،

إن هي إلا معركة.

يركض هاربًا باتجاه المتنزه المظلم والمهجور، يحّدثُ نفسه: إنهم ثمانية من الأشرار المدجّجين بالسلاح، ولا سبيل لمواجهتهم، من الغباء أن يموت المرء بمواجهة غير متكافئة، إن هي إلا فتاة غريبة.

لم يكفّ قلبه عن الخفقان خوفًا واضطرابًا، لم يكفّ إحساسه المُرّ عن الشعور بالعجز والهزيمة والخزي مجددًا، لم ينقطع عن الركض، يشتم الوعي والكتابة

والحسّ الإنسانيّ المزيّف، يشتم الغيرة والجُبن، يتمنى أن يكون ما يجري حُلمًا، يُفكر في الوسادة والنوم، دون أن تُبارحه فكرة القتل بالرصاص الكاتم دفاعًا عن امرأة عابرة سبيل غريبة.

في ضحى اليوم الذي تمّ فيه الاعتداء عليه من قبل رجال حماية السيد المسؤول دفاعًا عن الخادمة الشابة الصغيرة، يترك سنان بطرس مَتّي مسودة روايته التي شرع بكتابة تفاصيلها، ضَجِراً من فكرة المضي قُدمًا بكتابتها كونها رواية لا تحمل غير الوجع، ينهض بمزاج متعكر بسبب ما تعرض له من إهانة وضرب وتهديد بالقتل، ولأنه في قرارة نفسه فضّلَ أن لو مات بدلًا عن الهرب بذلّة وعدم نصرته لتلك الفتاة التي تعرض لها رجال حماية (المسؤول) تزامنًا مع أذان وصلاة الفجر، يشعر أن فكرة تواجدها وحيدة وسط أحد شوارع العاصمة لا يمكن أن يعطي الآخرين فكرة غير فكرة أنها فتاة ليل، وهو ما تجسد أمام ناظريه، حين تعامل معها أولئك المخمورون تحرشًا وضربًا وتنكيلًا، وحين تصدّى للدفاع عنها وجد ما لا يسر ويُرضي.

يحاول أن يغيّر شيئًا من مزاجهِ العَكِر، يفتح شاشه الموبايل، يقرأ البريد الوارد إليه عبر ماسنجر موبايله، يفرح بالرسالة الواصلة إليه من صديقه د. سليم عبد الصمد، يجيب على الفور: شكرًا لله سليم لأنك صديقي، يغتسل يتناول إفطارًا بسيطًا، يحتسي كوبًا من الشاي، يشعل سيجارته، يتصل بصديقه الشاعر حسن الحمود:

- صباح الخير صديقي.
- يا صباح المجانين.
- سأمر عليك، حصلت لي أشياء غريبة.

- في الصحو؟
- في الصحو، وفي غيره.
- تعال، أنا أيضًا حصلت لي أشياء غريبة.
- في الصحو؟
- في الصحو وفي غيره. -يضحكان بمحبة-

في الطريق إلى بيت الشاعر حسن الحمود، يدخل سنان بطرس مَتّي كطبيعته في حوار داخلي مع نفسه، منفصلًا عمّن يشاركه الجلوس في السيارة، أشخاص متعبون يجتّرون الأحاديث نفسها، داعش، البرلمان، مجلس الوزراء، أزمة الكهرباء، البطالة، ووووو، كلام مجتّر لا ينتهي، أزمات لا تنتهي، متاهة تقود إلى متاهة، ضجر يقود إلى ضجر، يحاول أحدهم أن يلطّف الجو بين الركّاب، يقصّ عليهم نكتة مضحكة، يبتسمون على مضض، يردفهم بنكتة أخرى أقوى من سابقتها، ينفجر الجميع بضحكات عالية، ينسون كل شيء، ينبرون بقصّ النكات التي تسخر من الحكومة ورجال التشدد الدينيّ وهم يهددون بغداد بالقدوم إليها فاتحين. يتساءل في نفسه: لا أعرف كيف قُيِّضَ لي أن أختار نماذج بشرية دون غيرها لتكون العمود الفقري الذي يستند عليه نص روايتي، المشكلة شائكة ومعقدة، الأوضاع ما تزال في تفجر مستمر، القلق والاحتدام يُسيطران على مشاهد الحياة الاجتماعية والسياسية، وهما ينذران بحرب أهلية بسبب تدخل الدول التي لا تريد خيرًا بالعراق، أزمة السنوات الماضية ما زالت تُلقي بظلالها على كل مفاصل الحياة، المواجهات شرسة ضد حكومات البؤس، الغالب الأعمّ لا يعرف غير لغة الدم، الجميع أصبح بين كمّاشتيهما، الأبناء

يتزّيون من جديد بأزياء الحرب القاتمة والمرقطة، البيوت عامرة بالجوع وبالتخبط.

يصل إلى بيت صديقه حسن الحمود، يطرق الباب، يستقبله الحمود بوجهٍ حزين أكله الشيب، لكنه وجه بشريّ أدمن الابتسام.

- ما بكَ؟ -يسأله-

- متعب. -يرد-

يضحك الحمود قائلًا:

- وما الجديد في ذلك؟ -يرد بعمق-

- مشروع كتابة روايتي البِكر هو الجديد.

- عظيم. -يهتف حسن الحمود بفرح- يجيبه بحُزن:

- لم تُمكنني من نفسِها.

- تلك هي العظمة، لحظة الكتابة العصية، عندما يتمنّع النص عليك، اعرف أنك لستَ أمام مأزق، بل أمام ولادة إبداعية جديدة مشرقة.

يرد بضعف:

- ما الذي سأفعله يا ابن الحمود؟

يجيبه بثقة:

- لا شيء يا صديقي يستحق القلق، السؤال هو: أين تكمن الصعوبة؟

يرد:

- في متن المقدمة، افتقرُ إلى المفاتيح، الشخصيات التي أحاول رسمها في مخيلتي، ما زالت تعيش وتتنفس وتأكل وتشرب مع الأزمة التي لم تصبح بعدُ تأريخًا قديمًا يستطيع من أكتوى بناره أن يتأمله بهدوء ليستخلص منه العِبر.

- هذا يعني أن عليك أن تخوض في ما تفكر به تلك الشخصيات وأن تستجلي مواقفها الحياتية كما هي، دعها تسترسل كما يحلو لها لا كما يحلو لك، ثم نمّق أفكارها بما يتسق وشروط السرد.

- نعم، نعم، يا صديقي، هذا صحيح وهو يذكّرني بما قاله أحد الكُتّاب العالميين، بمعنى وجوب أن يكون الكاتب مرآة عاكسة لهموم الشعب.

- نعم، هذا صحيح جدًا.

- تعرف يا ابن حمود، لديّ الكثير من الشخصيات التي أودُّ إدخالها في أحداث روايتي، سأمر على فوضاك وأعباء سجنك، ومعجزة خلاصك من الإعدام، سأتحمل مزاجك المتقلب وحالات النكوص التي تنتابك باستمرار.

- لا يا ناكص

- يضحكان، يستمر سنان بطرس في استرساله:

- سأحرص على كشف المسكوت عنه محركًا شخصياتي بتلقائية وجرأة.

- ستكون رواية واقعية مؤلمة يا ابن بطرس.

- أجل يا حسن، لكنني أفتقر إلى الحِبكة، أما مشكلتي الأكبر فتتمثل بكون الرواية لم تسلمني مفتاحًا من مفاتيحها أنطلق من خلاله.

- حاور كل الشخصيات كُلٌ على حِدة، واسأل نفسك فيما لو نجحت بذلك، كيف سأوظف الأمر إلى عمل روائي أريده أن يكون ناجحًا وحقيقيًا.

- هذا سيتطلب مني أن أكون لسان حالهم جميعًا!

- لا، لا أنا لا أفضّل ذلك مطلقًا، اتركهم يتحركون ويتحدثون على رَسلهم، واكتفي بدور المُراقب والمتفرج، ولكن عليك أن تصنع حِبكة يدورون في فُلكها.

- هل تعلم يا حسن؟ لقد فكرتُ مرارًا أن أتخلى عن فكرة كتابة رواية، يكفي الناس ما هُمْ فيه وعليه.

- أنا معك، حتى أنا مللتُ كتابة الشعر بعد صدور مجموعتي الشعرية السادسة، شعرتُ أنني أدور في الفلك نفسه، الحقيقة يا سنان إن الجميع متعبون ومرتبكون ومتطيرون من كل شيء، تعاقب الحكومات الفاشلة، كذبة الديمقراطية التي وُعدنا بها، الأزمات، جرائم جند الخلافة والقسوة، العمليات الإرهابية التي تطال الجميع، كل هذه الأشياء، وكثير غيرها، تجعل من الجميع مُستنفرين ومُستفَزين.

- هل تعلم يا صديقي، لقد سألتُ جاري الذي يُعيل عائلة ضخمة العدد،

ويسكن مثلي بشقة ذي غرفة واحدة وصالة، كيف ترى الواقع بعين بصيرة؟ أجابني بعد أن شتمني، سيكون البُصاق تحية الصباح للجميع.

- هههه خُذ الحكمة من أفواه المُتعبين، فشل الحكومات المتعاقبة والإسلام المتشدد أفسدا كل شيء، وأتعبا نفسيات المواطنين.
- نعم يا صديقي، خوف، ترقب، ضجر، وعود كاذبة، لا شيء غير ذلك.
- نعم يا حسن، الأزمات السياسية ولدَّتْ الحقد والاحتقان، شاشات الفضائيات مكتظّة بالكراهية والتحليلات البلهاء والكاذبة.
- الشوارع والبيوت مكتظّة بالموت حرقًا وذبحًا.
- نعم هذا صحيح، ليل التهجير والحرائق، ما يزال يحمل ملامح الرعب والخيبة.
- هههه.. الناس تركت نتائج وتشكيل الرئاسات الثلاثة وإقرار الموازنة وانجرّت للعبة الحرب والمواجهة.
- الجميع يدعو للوحدة، والجميع متشرذم، ويعمل على تهديم أركان تلك الوحدة، مَن يحتضنك صباحًا يقتلك أو يذبحك ليلًا بدم بارد!
- الذبّاحة مسخ يريد إيهام الإنسانية أن الدين هو دين القتل والحرق والاغتصاب والنهب والهيمنة لهذا أصبحوا يدمرون باسم التكبير.

ينفعل سنان بطرس باكيًا:

- اقطع رؤوس الأبرياء وكبّر، اغتصب النساء وكبّر، دمر الحرث والزرع ومعالم الحضارة وكبّر، إحرِق الأسواق والمتاجر ورياض الأطفال وكبّر،

افعل ما يحلو لك باسم التكبير،

المصيبة أن مَنْ يقتلك يعتقد أنه خليفة الله على الأرض.

يشاركه حسن الحمود الانفعال:

- مزق جسدك وتشظى، أسرِع بالارتقاء إلى عرش الرحمن، فهناك ستُطعم من لحم الطير، وحين تشبع وتتكرش وتتجشأ، ستتقيأ رؤوسًا بشرية، وستؤخذ من يدك لتُدلّ على مكانك في الجنة، وتخلد في النعيم، لأنك قتلت الآلاف من الأبرياء الذين أدمنوا قول لا إله إلا الله، أو ممن ترنموا بأبينا الذي في السماوات، أو لأنك هجّرتَ الناس ثم بنيت على حُطام بيوتهم بيوتًا أسستْ من خلالها أحياء ومُدن ليست على الخرائط، ليسكنها من لا يستطيع امتلاك بقايا حلم وامض، ولتفوز بالرضوان، تفوووووووو على فكر يجعل من دماء الأبرياء ماءً للوضوء والتطهر.
- أرعبتني يا حسن!! سأترك المضيّ في كتابتها خوفًا من الوقوع في فخّ المباشرة.
- سنان يا صديقي، أكتبها وأسعَد، لا تكترث بالطريقة التي ستولد عليها أكانت عصية الفهم أم فجّة مباشرة الطرح، ففي الطريقتين يتوجبُ عليكَ التوثيق، وليشرب النُقّادُ من ماء البحر، حقيقة لا تعريف محدد للرواية، أما الإبداع الحقيقيّ فهو أن تكتُب بحريّة.
- لا أدري يا صديقي، أنا مشوّش التفكير، لربما هربتُ من الكتابة إلى ترف الرسم.

- تجيد الرسم؟ حسنٌ جدًا، ارسم، لكنك لن تخرج عن فكرة رسم رأس مقطوع يا صديقي!

يذرفا دمعًا سخيًا بسبب هذا الخروج عن النص، يخرجان مجددًا عن التهذيب، يمضيان الوقت المتبقي بالشتم والنكات الفجّة، وقراءة الشعر.

يتهكمان على الحكّام والأصدقاء والحياة، يتلقى حسن الحمود اتصالًا من د. سليم عبد الصمد ليسأله فيما لو اتصل أو التقى بسنان بطرس، وحين يبلغه أن سنانًا في ضيافته، يطلب منه أن يعطيه الهاتف ليحادثه:

- أهلًا سنان.
- أهلًا دكتور.
- يوم الجمعة القادم، أنت مدعو وحسن لتناول طعام الغداء عندي في البيت.
- شكرًا دكتورنا، ربما لست بمزاج لتلبية الدعوة.
- ستأتي يا سنان بإذن الله، سأسلمك مفتاح الشروع بروايتك الجديدة.
- صحيح، كيف ذلك؟
- سأعرِّفك على صديقي البطل المُجاهد أبي حسنين، وحده من سيفتح لك باب الكتابة على مصراعيه بإذن الله.
- شكرًا دكتور سنحرص على اللقاء بحماسة وشوق. باي باي.
- في رعاية الله وحفظه صديقي بطرس، تحياتي لابن الحمود.

يتحاوران قليلًا حول دعوة د. سليم عبد الصمد، قبل أن يفترقا على أمل لقاء قريب.

الأنبار/ ٢٠١٣م

تداولت الأخبار المبثوثة كلَّ شيء، ولم تتطرق للغارات الجوية للقوات الأمريكية التي أزهقت أرواح مائتي طفل في قصف جديد مركّز، أصبحت الأنبار تزداد فيها حدّة الجحيم بشكل يومي. الأهالي نصبوا خيامًا للمطالبة بحقوقهم ردًا على ارتفاع وتيرة العنف وحدّته، هم يطالبون بالخدمات المفقودة، بينما مشاهد المعارك المندلعة في الفلوجة والأنبار ما بين القادمين الجُدد وقسوة الحلفاء، من هنا ابتدأ الجحيم، من كل ثانية مشت بها المنايا مع الناس وسالت بها الدماء أمام أعينهم، ليس للعراقيين غير لعبة الموت، الأحداث المتنامية تنذر بالكوارث، القادمون الجُدد قُساة بشكل لا يوصف، والحكومة والعسكر يتعاملان مع الأهالي معاملة المنتمين لهؤلاء، من هنا انطلقت الغرابة وازداد الخبل، الأشجار الجرداء والصحاري القاحلة تتألم لمشاهد الذبح الممتدة وتبكي لأحوال الناس، الحجارة تبكي دمـــًا، القطط تموء بوحشة، نباح الكلاب يشق ثياب الظلمة، أسرار كثيرة تضيق بها صدور الجدران، الأرض تنوح مثل أم ثكلى، وصلاة التطرف تتضرع إلى الله:

- اللهم يّسر ولا تُعّسر.

- صعلوك يعربد في متاهاته:
- متى أنام؟

التاريخ ابن زنا، الأيام العصيبة ما زالت تجهض أطفال الليل من رحمها الذي صار يتسع لكل المرتجفين من جمرة شبق القتل، ثمة أرواح متعطشة للدماء، أنصال سيوف مدماة ترتفع في حر الهجير، في المقابر عويل، العويل يشق عنان السماء، ثمة أصوات ترتفع في الخيام «قادمون يا بغداد» بصيغة التهديد والوعيد.

أصوات ترتفع في البيوت الحزينة بألم ممض» أهلنا يا من ضيعونا»، خفّة الظِل بين الناس أكلتها الكراهية، أنفسٌ كثيرة أصبحت تغرد خارج نطاق تغطية الحياة، جُلّ الذين ذُبحوا أو قُتلوا أناس مسالمون، طيبون، يعشقون الحياة، ولم تستهوهم الأحزاب ولا الألقاب، هم يكرهون السياسة والسياسيين، لكنهم ذُبحوا وقُتلوا ومن لم يُقتل أو يُذبح سيُقتلُ أو يذبحُ في الغد، لا أحد لمن يطلقون صرخات الرفض ضد كل الفوهّات المصوبة إلى الرؤوس والسيوف المسلطة على الرقاب، في الشوارع الممتدة، وسط أزقة الحواري المظلمة، لا شيء يتناهى إلى أسماع الأبرياء غير وقع أقدام وتكبيرات جُند الخلافة، وصوت نعي الأرض وصُراخها المستمر(عين الباردة عليكم يُمّه).

الفلوجة/ مايو/٢٠١٣م

ضواحي المدينة نفسها مسوّرة بالقيود والاسلاك الشائكة وقسوة الحراب، مفتوحة على هم اكيد، بنهاراتها الرمادية المعطوبة، سواحل احزانها الجافة، واجهات محلاتها الملأى بالتماثيل الشمعية، شوارعها المسكونة بالوحدة المرعبة، المغلفة بصمت يشبه صمت الموتى، بينما الملح يشوب الجدران، لم يفش أحد لأحد سلامًا ما، لا كره، لا محبة، غواني العاصمة ضجرات، أمهات الضحايا القابعات في قاع المدن الشعبية، فقدنَ الإحساس بكل شيء سوى الكدر، الشعراء والخونة حيارى في متاهات المسافات البعيدة عن المدن المكتظة بالقتل وبالذبح.

بعض الناس نيام، لا يحلمون بشيء، لا جمال، لا خيانات صغيرة أو كبيرة، لا محبّة أو كراهية، وسط هذه المدينة التي تنتمي الى وطن يقسو على الجميع، مدينة محنطة، خائفة، حانقة، رعبٌ فرعوني، حطام وفوضى، ليس ما يشدّ الناس إلى الحياة سوى انتظار لحظة الموت ببشاعة، النساء متحجرات المشاعر، ثمة انكسارات مملّة، كل شيء لا يملك جدواه، القوانين عقيمة، إلا قانون القوة، فهو الوحيد الذي يُناسل نفسه لينجب لنا أندادًا أقوياء لا سبيل لمواجهتهم.

للأشياء جميعًا رائحة قبر أو بارود، فوضى الاضطهاد مثل صفعة مقصودة يتلقاها الوجه من نعلٍ يابس، في سِني الكراهية السابقة واللاحقة سيستعيد الجميع كراماتهم المُهانة، فقط عن طريق الموت الذي يرونهُ مُشرِّفًا، الأمتار المعطوبة مكتظة بنساءٍ يحلُمنَ بالمال والرجال والرذيلة، الرجال ضحايا شيزوفرينيا الواقع، لا شيء يتسع لشيء، المسافات ضيقة، لا شيء يستوعب الخبَلْ، الكل مُهان، الضباع الجرباء تجتاز الشوارع، تحتلّ الساحات والأزقة، معبأةٌ بالقتل وبالدم، المُدنُ المحتلة داخل رؤوسهم المعشّشة بغربان الشر، ليست أكثر من مسلخ كبير، مسلخٌ تمتد مساحته الدامية لتشمل المدن بأسرها، جُند الخلافة ينظرون إلى الجميع نظرة القصّاب إلى الذبيحة.

الجميع في أعرافهم سيكونون شياهًا تنتظر الذبح والسلخ، أصبحوا يمتلكون همّـًا واحدًا، ليس أكثر من التطهر بالموت خلاصًا من الكُره، المال حرام، الأحلام حرام، المُدن مسالخ كبيرة تستند على أذرع الذبح، الكُلُّ شِياه، المسالخ مؤامرة، تمامًا كما المعارك التي يقودها المتميزون بالكراهية والرعونة، الموت لعبة (بلي ستيشن) سمجة، في السنوات التي أعقبت الاحتلال كان الجميع شجعانًا يتسمون بكل مواصفات الشرف، يجلسون، يسهرون، يخططون، ينهضون، يمضون إلى المواجهة والموت استشهادًا دونما شعورٍ بمذلّة، لم يكن الواقع الذي فرضه الاحتلال مخيفًا رغم قساوته، في العام ٢٠٠٦ صعودًا إلى قمة الانحدار أتت النار على أوراق الأعمار الندية كلها، أكلت الأحلام الشفّافة المُشبعة بروائح الطُهر، ولوثت الأفكار الناصعة نصاعة الملائكة، ثمة جذور شر وفساد نبتت في التربة المندّاة بدماء التضحيات فأينعت زرعًا أسودَ لا تطرح بذوره غير الشر، أصبحت الأجساد مطعونة ألف مرة،

أجسادٌ مهشمة ومحترقة وذاوية وزاحفة فوق ذرى الأرض المهمومة ببتور وكسور المواجهات المُقاوِمة بشرف، فخلّفت فيهم عاهات لا سبيل لشفائها، القادة ترّصَنوا أصبح الثوّار يبحثون عن علاجاتٍ لانفصاماتهم المتعاقبة التي فرّختها لهم لعبة السياسة، أصبح الجميع يتوق إلى الخلاص من مصير الموت المتربص بهم بوحشيةٍ لا مثيل لها. الضباع والطحالب والأشنات في تكاثر مخيف جُند الموت الشاهري سيوفهم، يتمددون، يتكاثرون، ينتشرون كما العفن والقرف، يرسمون الموت على كل المساحات، بيوت العناكب تتدلى من زوايا وسقوف البيوت المهجورة، البيوت المواجهة للمهازل الصور عتيقة، ووجوه المغدورين لا تُحصى، التواريخ ثابتة، حانات العاصمة مضطربة، النزول إلى أعلى أصبح غير ممكن، الجميعُ يتحسسون وجوههم ويُقيسون علامات الزيف، الضِباعُ خلعت نشوة الحياة فارتفع السؤال:

ما جدوى ارتياد المدن التي هجرتها المحبة، وضاع فيها الامان؟

الكل يشعر بالاستسلام، السكاكين عمياء، لكنها تذبح

لا أحد يجيد قراءة السرّ في الكيفية التي يسقط فيها الجميع بفخاخ الحياة، سهلون في التسليم لقيادة النهايات المبكرة؟ ألا يجدر بي الهجرة من مدينتي؟ ولكن الى أين؟ فللمدن كلها الاحتراقات نفسها، لا أحد من الجلاّدين الجُدد يعرفُ مقدار الألم الذي يشعرُ به الإنسان، الصراخُ مكتومٌ في الصدور، لا يحتاجُ إلا للتحرر من الخوف والانفجار بوجوه القتلة وأصنام الدين المتشدد والمتحكمون بالمُدن المغلفة بالكراهية، أنْ كفى، ديناصورات العفن الديني القادم من ظلام الجاهلية تجوب الأماكن كلها.

أحيانـــاً يسأل الناس أنفسهم:

هذا العذاب الإلهي هل يغسل الذنوب والخطايا؟

رؤوس بشرية مختلفة تجول في دواخلها الأفكار المختلفة، بيوت آيلة للسقوط، كلما ترفّ عين امرأة يُزف قتيل إلى المقبرة، الخفافيش تلعب بخِفّة في سماء الليل، في كلِّ ظهيرة تتجدد أصوات التكبيرات بخشوع في الأوقات المتناهية الحزن، ليلاً يعومُ وعي أحدهم في حوض أفكار كتاب قديم يدعو إلى الأنسنة دون أن يعلم أن الأعمّ لا زال يخوض في عوالم الحيونة، على تخوم الليالي الرتيبة، ثمّة سجناء ومعتقلون يتمنون أن لو كانوا قد وُلِدوا من أرحام مشوهة مثلما يتمنون وعاءً للصبر يُطعمونه بيد إلهٍ رحيم، حبيبات يقفنَ خلف ستائر الانتظار المُمِل وقد أكلتهنّ الأشواق، تنتحب إحداهنّ بألم ثم سرعان ما تمسح دموعها بعصبيةٍ ظاهرة، مقررة من أنها لن تنتحب من جديد كما في كل يوم، تقسم ألاّ تُشبك أصابعها بقلق أو أن تنفش شعر رأسها أو تعاتب صور زوجها المعلقة على الجدار، بينما تعاتب الأخرى زوجها الغائب بصوت حطمته الظروف، تخبره عن قسوة ما أرادته لها الأيام من أن تموت بسواد ثيابها، تشتكي له قسوة أن لا يعود إليها أبداً، تخبره أنها تعرفُ ذلك جيدًا، من الوجع الذي تحسّهُ في قلبها، وحين تضيق بها الأمزجة كُلّ غروب، تنفجر باكية، وهي تطلب من الربّ الغوث.

وطن إناث وذكور يحمل كل واحد فيهم صفة الترمل، يقص بعضهم على بعض سِيرًا مزوقة لحياتهم، يتفقون على ارتباطات روحية مؤقتة مخافة أن تمضي بهم ليالي الوحشة والوحدة أكثر فأكثر، سيدة أرملة ثُكلت بأولادها الأربعة تنهض صباح

يوم ثقيل، تغتسل، ترتدي أجمل ثيابها، ترمي بثياب السواد إلى النار، تُسّرح شعرها الأشيب بعد أن صبغته بسوادٍ فاحم تقول بإصرار، وهي تُنظفّ مرآتها القديمة، إنها لن تنتظر عطف الآخرين وتعاطفهم، لن تنتظر رحمةً مِنْ زمن جاحد، وإنها لن تتصالح بسلام مع أيام خذلتها، تهتفّ أخرى مناجية الربّ عمّن يوقف هذا الألم العاصر؟ ترتضي الأُخريات بما قسمته لهنّ الظروف، يُقررنَ أن لا يطلبنَ شيئًا من صلاة الحاجة، هُنَّ ينتظرنَ الموت بعد وصول الفواجع، لن يطلبنَ الشفقة من أحد، يكفي أن الله يسمعُ «ثغيب» أرواحهنّ ووحشة وحدتهنَّ المميتة، بات الجميع -كما درجوا في الملمات- يُصلّون ويبتهلون إلى الله، تتساءل امرأة عن جدوى خطوات وشموع النذر، تولول أخرى إنها لن تطلب من ربها شيئًا ؛ لأن ما هو كائن سيكون، تخاطب الله القدير إنها ستصلي له لأنه رب يستحق منها السجود له وحده، تقسم عاشرة من كونها لن تبالي بعد، لن تطلب منه شيئًا، لن تتكلم لمثيلاتها، ولن تتساءل عن فرج قد لا يأتي، تتشكّى أم مفجوعة لربها، عمّا اقترفتهُ في حياتها وهي ترى رجال حياتها الخمسة يتساقطون من أغصان شجرة أنوثتها وأمومتها تساقط الورق اليابس، تحولهنّ الفواجع بماضيها وحاضرها إلى نسوة قويات غير مطفآت، نسوة واثقات من رحمة الله رغم قسوة الأحداث، متدثرات بألم صارخ، يستعرنَ الراحة من نهارات الخوف طلبًا للتحرر من وطأة الحزن، غير مكترثات بالأقدار، مرددات على الدوام وجوبية الاستمرار، يخلعنَ ثياب الحزن غير مكترثات بكثرة الأقاويل.

يُمسي التكبير ملء الأشداق العريضة مملًا، يصعق الأسماع ويملأ الشوارع، كل الأحذية المُدماة تقترب من المساجد، تكّبر وتصلي على جنابة الفِسق وبَلل دماء الضحايا، كلما يهبط ليل الخوف، تغرق الأحياء بظلام الهواجس، أزيز رصاص، أضواء

فاقعة لانفجارات بعيدة، انفجارات تصيب الناس بالهلع، تتعب صدورهم العليلة، تعصر بطونهم الخاوية، تهتز البيوت والمزارع والأراضي المقفرة، قصف طائرات، عصف هاونات يحطم الأبواب والنوافذ ويُدمر واجهات البيوت، ينطوي الليل محتدمًا بالقتال، بأزيز الرصاص وعصف القصف الجوي وتطاير شظايا الهاونات، تفزع الحيوانات، بعضها ينفق خوفًا أو بسبب الإصابات العشوائية البليغة. يُصاب الأطفال والصبية بالهلع، يبكون، يتبولون، تُطلق النساء صراخًا مريعًا، يتناهى إلى أسماع الجميع وقع الخطى الثقيلة والأصوات المرعبة وصراخ المصابين في داخل البيوت صور حياتية لأناس يحاولون التواصل مع الحياة رغم عتمتها.

رجل سياسي على مشارف العقد السبعيني كان يتوق لرفقة ما، يُقلّب مفكرة الأرقام والأسماء، يجد وهو وسط حومة الكراهية والموت أن كل الذين يتوق لرفقتهم إما أن ماتوا أو هاجروا، لهذا لم يَلُمْ نفسه يومًا وهو يعيش في جلباب عقده الستيني، يُخطط لمص دماء من همّشوه ومن تسيدوه لأن أغلبهم كان سببًا في موت أو هجرة رفاقه، «داخل أطلال بيت قديم، يستلقي كهل مسكون بالوحشة على بقايا فراش قديم» ينظر إلى اهتراءات سقف غرفته الرطبة دون أن يتذمر وقد سكنت روحه بعد أن أحسّ بهرب أفراد عائلته من زوجة وبنتين وأولاد وأحفاد، ووصولهم إلى ما يمكن عدّه مكانًا آمنًا، تجول روحه المضطربة في تفاصيل الذكريات وهي تصرخ بذلك الجحيم الذي لا يهدأ أبداً، يحاور تفاصيل البيت، سرير الزوجية، مائدة الطعام، صور الأولاد، جوارب وأحذية الأحفاد ومناماتهم، يطلب من أصوات الموت أن تكفّ، ومن الذكريات أن تستكين وأن ترحمه من وجع وجمر الفراق، يتمنى على الله أن يدعه ينام أو يموت بسلام وسكينة فليس هنالك ما يُقال ويُستَحقُ العيش

به أو له، إذ يذوب الوقت الرتيب ذوبان شموع يحيط بها الصمت من كل الجهات، تطلب منه الروح أن يبتهل، يغطي وجهه بكفيه، يضحك ببراءة وطفولة، يدخل في نوبة نشيج مرَّ يشعر بضيق نفَسٍ في صدره، يتألم كثيرًا، يقدم إلى جهة المخاطر، يفتح نافذة بيته القديم، النافذة التي تطلّ على الخراب، لا شيء سوى وميض الاقتتال، يتساءل بمرارة عن سبب ذلك كله، يغلق النافذة، يبتعد عنها، لا يجد لتساؤله غير الدموع، يشعر بإرهاقٍ كبير، ينام متعبًا، يعلم أن موته لا يعني غير الدخول في متاهة الكوابيس، أو الاستيقاظ محاطـًا بأصحاب الرايات السود وهم يهزونه ليستيقظ ومن ثم ليقتلوه بعد محاكمة قصيرة تنتهي بإطلاق أحدهم نيران غدّارته عليه مكبّرًا بصوت يشبه النهيق.

في مكان قصي آخر، يتمدد رجل دين ورع وتقي باتجاه القبلة وقد اختفت تفاصيل وجهه في غابة شعر لحية وشارب أشيبين، كان يحتضر وحيدًا، وهو يطيل النظر إلى باب غرفته حيث يقف الآباء والأجداد وهم ينتظرون ذهابه معه، يشعر بانطفاء قلبه، يتوق إلى إشعار بسيط يأتيه من خالق عظيم، يحتاج إلى طمأنينة حياة انصرمت بين مثاليات الكتب وفوضى الناس، لا ينتظر شيئًا أكثر من أن يكفّ الآباء والأجداد القدماء عن التحديق به بعيون فارغة وملامح مطفأة لا حياة ولا تعابير فيها غير تعابير الحزن والشفقة، يتمنى الآونة أن يستديروا صوب طريق الخلاص ليتبع آثار خطاهم لاحقـًا بسكينة وهدوء، لا يطلب أكثر من ذلك في بداية الرحلة إلى الموت رغم حياته التي أمضاها يُبشر بالجنّة، لحظات صعبة تمر عليه، لا يُفكر فيها بشيء على الإطلاق غير تفكيره بالخلاص الأبدي من الجحيم الذي يتلظى بناره وعذابه على سطح الأرض في مدينة منسية وسط أزقة مكتظة بالكراهية والمعارك،

داخل بيت قديم، بين وحشة جدران رطبة لا تحمل غير صور الموتى والآيات القرآنية، خَبَل هو الحاضر، الأنهار رسالات تهديد حربية، الصحارى والغابات حواضن الشر القادم باسم الخلافة، كل ما في الطبيعة مضطرب يدعو إلى الكراهية، أرتال بشرية تثغو وترعد، تزبد وتعربد، في كوميديات سوداوية شعارها الموت، نزغٌ من غرائبيات تصنع من الشجر والحجر والبشر وحوشًا تعوي بأصوات مُنفرة ومُوحشة، كل الأشياء ضجرت من بعضها البعض، الأحمر العنيف لون مهيمن، لا شيء يدعو لغير الضجر من هذا الإنسان الذي يحاول أن يتنفس وسط أتون هذا الجحيم، جلبة تتبع جلبة ودخانٌ يعلو دخان وعذابات تتفنن برسم خطى عذابات أكثر قسوة، أمزجة صارخة تسحق كل شيء، الطبيعة باتت تُسمّم كل الأشياء التي أصبحت تسير في اتجاهات خاطئة، لم تعد الطبيعة تعمل على لم شَتات الأضداد ورسم ملامح الحياة المتجددة تحت ظِلال الجحيم، أسعد الفقراء هم الذين ينامون على ذراع الجوع فلا يدخلون متاهات الكوابيس، سُعداء لأنهم يحلمون بسفر الخلاص، الحقائب والقطارات ومناديل الوداع، يبتسمون في عوالم أحلامهم فيجدون أنفسهم يسافرون بعيدًا عن جحيم بات يُدمرهم، يمرحون ويأكلون ويشعرون بعذوبة ليل جميل يمضي بلا مخاوف، يلوحون بأيديهم ومناديلهم فرحًا رغم الحُزن الدفين، سُعداء لأن المراكب والقِطارات قد بدأت تهرب بهم إلى مُدن السعادات الأبدية. الجميع مستغرقون في أحلامهم لا يعلمون سببًا لتعاسة أو سعادة، سعادة لا يقتلها غير استيقاظهم المدمر على وقع أصوات أزيز الرصاص والانفجارات التي تهزهم هزًا لتعود بهم إلى دوائر الجحيم والخَبَال التي لا فكاك منها.

في ليلة من تلك الليالي التي لا فكاك من وطأة قسوتها على الناس، يقرر الزوج

المسنّ لسعاد مندل الرحيل إلى الأبدية والموت بهدوء، تحرص أن تجعله يموت بضمير مرتاح، وقلب خاشع لسماع تلاوات القرآن، تريح جسده المتهالك على فراش مريح، تعطر المكان، تمنحهُ دفئًا وضياءً مريحين، تسنده إلى وسادتين مريحتين، تتجهُ برجليه إلى القبلة، تتلو عليه بعض الأدعية بصوت خائف خافت. يشكرها بإغماضة امتنان من جفنيه، يُقبّلُ كفيها، يمسحُ دموعًا نزلت من عينيها، تقبّلُ كفيه، تقول له بحزن:

- لا أطلب من الله شيئًا أكثر من أن يُبقيكَ لي زوجًا وأبًا.
- تنحني على شيبته مقبلة، يهمس في أذنيها بصوت متحشرج:
- شكرًا لكِ يا سعاد.
- الشكرُ لك يا حاج.
- يشعر باطمئنان غريب، وبسفر بعيد.
- ليطيل الله في عمرك.
- سعاد.
- أجل يا حاج.
- لقد ابرأتُك الذمّة عن كل شيء.
- تنشجُ بخوف، تُجيبه بصوت مرتعش:
- وأنا ابرأتُك الذمّة عن كل شيء.

- عندما أموت افتحي وصيتي، لقد كتبت لك البيت بما فيه، وكتبت لك وكالة مطلقة براتبي التقاعدي، أما قطعة الأرض الزراعية وسيارة الحِمل، والمواشي التي يرعاها أخي محمود، فأوصيتُ أن تتقاسموها أنتِ وولدي وابنتيَ، ولأدفن في كربلاء جنب سيدنا الحسين (رضي الله عنه.(
- فداك يا حاج. سيكون لك هذا بعد عمر طويل.
- سعاد، عديني بتنفيذ ما طلبته منك، وما سأطلبه منك الآن.
- تفضل يا حاج.
- عندما تمر سنة على وفاتي، أطلب منك أن تتزوجي، ولتستظلّي برجل شهم، أصغر مني، يحميك من هذا الذي يجري.
- تبكي بألم وحرمان، يصفرّ لون وجهه، يسبل جفنيه بارتخاء عجيب، تفتر شفتاه عن ابتسامة خوف ومهابة، يتمتم بنطق الشهادتين، يداه تسقطان إلى جنبيه، يلوي رقبته جهة الموت، تنسحب ملامح وجهه إلى الداخل، يصبح لخديه ولعينيه شكل الهوّة، يفغر فاه مُسلّمًا الروح، تصرخُ بهلع، يرتج جسدها خوفًا، هي المرة الأولى التي يموت إنسان بين يديها، تُطلقُ زفرة حادة، تغطيه بأكف مرتعشة، تعود إلى صراخها الحاد، يهرع إليها البعض ممّن صمدوا في البقاء داخل بيوتهم، تنفتح دار الحاج محمود شقيق زوجها، ينطلق الجميع راكضين صوب بيتها وهم يصرخون بأصوات متفاوتة:
- مات الشايب.
- مات أخي الحاج حمد.

- مات الحاج.

تمتلئ الدار بالتكبيرات وبهتاف لا إله إلا الله، محمد رسول الله، تعمّ أصوات البكاء أرجاء البيت، يتجمع الناس محوقلين، مسترجعين، يتجهون الى الغرفة التي سُجيّ فيها جثمانه، يخرجون الجثة الى باحة الدار، يكملون طقوس الغسل والتكفين، يجلبون غطاءً ثقيلاً يرفعون به الجسد المسجى، يهتف أحد الرجال:

- لنصلي عليه صلاة الميت. -يجيب الحاج محمود-
- سنصلي عليه في أحد المساجد. -تعترض سعاد-
- يا حاج محمود، لقد أوصى المرحوم أن يدفن في أرض كربلاء.
- يدنو منها، يقبّل رأسها مواسيًا:
- سنودعه أرض الأجداد، لحين انجلاء المعارك، الأرض ستحرسه وتحفظه فهي لن تأكل وديعتها يا ابنتي، أما الآن فالذهاب به الى كربلاء سيكون مذبحة لنا جميعًا، العساكر وجُند الخلافة سيمزقونه ميتًا ويمزقوننا معه، ترتفع التكبيرات، يمضون به بسيارة (بيك أب) صوب مدفن قريب، وقد أطفأوا مصابيح سياراتهم، والخوف يرافقهم، الخارج يعني الجوار، الأماكن غير المأمونة، حيث تندلع المعارك، وتشتعل النار في كل شيء، واجهات البيوت، الأشجار، زرائب المواشي، ساحات الملاعب، الأراضي المزروعة، ثمة أصوات يوصلها صمت الليل، تكبيرات مقاتلين، أهازيج جنود، صراخ جرحى، بكاء أطفال، ثرثرة نساء، لعلعة رصاص يتناثر في الأماكن والاتجاهات كلها.

انفضّ الجميع عن سعاد مندل، وجدت نفسها مثل علبة فارغة، خالية تمامًا

من الأحاسيس، إلا الخوف من المعارك، لم تتملكها مشاعر حزن أو ارتياح لفقد زوجها المسن، تشعر ببعض التوتر، ترفع فراش الاحتضار والموت عن السرير، تقرر على وجه السرعة التخلص من كل الأشياء التي تبقي ذكرى زوجها المتوفى قائمة، عالقة في الذاكرة، شاخصة أمام ناظريها، تجمّع الأغطية والأفرشة والثياب، أكياس الأدوية وأجهزة فحص السكر والضغط، تحتفظ بصورته المعلقة على الجدار يوم كان معافى، بزيه العربي وشاربه الغليظ ونقطة الوشم على أرنبة أنفه، تحتفظ بأوراقه ومستمسكاته الرسمية، قسيمة الزواج الأصلية، الظرف الأسمر لوصيته، داخل علبة صغيرة، تحرص على غلقها بإحكام في درج من أدراج خزانة ملابسها، تحكم غلق الأبواب، تتجه صوب بيت ابن عمه الحاج محمود، من أجل أن تكمل طقوس الحزن لثلاث ليالٍ متتالية، قبل أن تفكر بأي شيء آخر في ظل الموت الجماعي الذي يُظلل الجميع.

بغداد/ الكرادة/ مقهى رضا علوان/ ٢٠١٣م

يشطح سنان بطرس بأفكاره القلقة بعيدًا بسبب الربك الذي أحدثته له فكرة كتابة رواية مرتبطة بالحاضر، يلتقي بمقهى رضا علوان بصديقيه الحميمين حسن الحمود وسليم عبد الصمد، يبدي لهما مخاوفه في الكيفية التي سيجد فيها دخولًا مثيرًا ومقنعًا لروايته، يقول له د. سليم عبد الصمد:

- اكتب بالكيفية التي تريد، كل ما عليك أن لا تنسى رسم البيئة التي تدور شخصياتك في أفلاكها.

يؤكد حسن الحمود كلام سليم عبد الصمد:

- صحيح جدًا، البيئة وحدها هي التي تقدم تفسيرًا لحركة الشخصيات الفاعلة، وهي من تحدد مستقبلهم بوضوح.

يسترسل عبد الصمد بهدوء وهو يحتسي قهوته الساخنة ثم يردفه بنفسٍ طويل من سيجارته الرفيعة:

- في رواية مائة عام من العزلة لماركيز، ثمة استهلال مرعب قام به الكاتب

وهو يلخص حالة الكولونيل أورليانو أمام فريق الإعدام، لقد عمد إلى استخدام عملية استرجاع الحدث لحياة ذلك الكولونيل في رحلته الثلجية مع أبيه رجوعًا إلى استهلاله الافتتاحي للدخول في عوالم قرية ماكوندو بوصلة للرواية ومسرحًا لعزلة روحية ومكانية يتم من خلالها ربط الأحداث ربطًا سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

يؤكد حسن الحمود:

- دع عنك ماركيز، واذهب لرائعة استورياس، البابا الأخضر، مشهده الاستهلالي جاء بطريقة آسرة أشبه ما تكون بعملية تصوير سينمائي مذهلة، عامل الوقود جو ماكرتومسون، يقف أمام مرجل التشغيل الفحمي داخل سفينة وسط بحر هائج.

يؤيده د. سليم عبد الصمد:

- صدقت يا حسن، في هذا الدخول العجيب يُقّسم استورياس حالة الوصف بشكل متداخل إلى قسمين: الأول التركيز على أفعال وملامح جو، والثاني: حالة الباخرة في صراعها مع تلاطم الأمواج الذي استمر حتى فجر اليوم الثاني.

يضحك حسن الحمود وهو يشرح لسنان بطرس لذّة اكتشاف النصوص، ههه، فما الذي تقوله عن الرائع فيركور في روايته الرهيبة صمت البحر.

ينتبه الثلاثة إلى عامل المقهى يقف متسمرًا أمام طاولتهم لا يُبدي شيئًا غير الابتسام، يسألهُ أحمد:

- نعم، عمو؟

يعتذر العامل منسحبًا بخجل:

- الاستماع إليكم متعة، اساتذتنا.

يبتسمون بوجهه الأسمر، يحيونه برقة، ينسحب بأدب جم، يتفرغ إلى تلبية طلبات رواد المقهى.

يستفسر د. سليم عبد الصمد:

- نعم حبيبي حسن، ما الذي كنت تود قوله؟

يجيب حسن الحمود:

- نعم دكتورنا، فيركور في صمت البحر منحني كلامًا في صميم القص استعرض من خلاله فلسفة الصمت ومدى تأثيره على الشخصيات الأولية، الضابط الألماني وصاحب البيت الفرنسي وابنه وقد احتلّ الضابط الألماني ذلك البيت، وربط المشهد كاستهلال بفلسفة البحر المهيمن، يومها شعرتُ بالتذاذ كبير، وأنا أبحر في تلك العوالم الإبداعية التي تبدو كما لو أنها كُتبت دون جهد، لا شيء غير مواهبهم الفذّة، ولغاتهم الرصينة التي نادرًا ما توفرها التراجم الجيدة والأمينة على النص الأصلي.

يؤكد د. سليم عبد الصمد:

- جميل ما تفضلت به، ولكن هل أعجبتك التراجم لهذه الروايات الرائعة؟

يعتدل حسن الحمود في جلسته مؤكدًا:

- في الواقع دكتور، لستُ مترجمًا، لكن النص يبدو رائعًا بتلك الحوارية المسبوكة بجمالية فائقة بين سوزانا العاشقة المتيمة وإيوهان مورتيز، وهي تتوسله أن يمكث عندها أكبر وقت ممكن، والبطل يصرُّ على الرحيل لفترة تستغرق ثلاث سنوات.

يُطلقُ سنان بطرس ضحكة مجلجلة ويزوقها بعبارات طريفة لكليهما مستطردًا:

-على رسلكما، على رسلكما، سنان بطرس، الصفر المنسي على الشمال، أين أنا من ماركيز واستورياس وفيركور وغيرهم؟! على الأقل لست بمستوى أقل روائي شأنًا هنا في بغداد.

يجيبه سليم عبد الصمد:

- لا أحد يطلب منك أن تكون أيّـًا منهم، لكن بالإمكان أن تترسم أساليبهم، والنقاط المهمة التي ينطلقون منها لكتابة أعمالهم الرصينة.

يؤكد سنان بطرس:

- ذلك صعب يا سليم. -يسفتزّهُ حسن الحمود-

- إتّبعْ خُطى يوسف ادريس في روايته القصيرة العسكري الأسود حين لجأ في مدخل الرواية إلى شخصية تتحدث في روايته عن طريق كتابة الأحداث وتدوينها عن طريق ضمير الأنا.

يهز سنان بطرس رأسه بعلامة نفي دلالة عدم قدرته على مواجهة صعوبة الكتابة بروح يتملكها الاستسلام.

يسألهُ حسن الحمود:

- طيب، ألم تقرأ لأحمد خلف؟

- بلى هو من كُـتّابي المُفضلين.

- ألم تقرأ له رواية نداء قديم؟

- أجل، أجل، استمتعتُ بها.

- أنا لم أسألك عن هذا، لكنني قصدت الدخول الذي كتبه خلف، إذ تبدأ أحداث الرواية برحيل قطار ما في ليل شتوي محتدم بمقتل شخصية يدور حول فلكها الاستهلال الأول في شخصية يونس الغطّاس ليكون الفصل تمهيدًا لتلك الحبكة.

يسألهُ د. سليم عبد الصمد:

- لِمَ لا تترسم خطى فاضل العزاوي الغرائبية والمجنونة في روايته (كوميديا الأشباح) التي يلج عبر استهلالها بقارئه داخل مصحة للأمراض العقلية، حيث بطل الرواية وهو يحتضر، ليس أمامه أكثر من ساعتين ليُفارق الحياة، فيعمد الكاتب بلغة رصينة مغلفة بواقعية سحرية وفانتازيا مرعبة إلى شرح حالة الاحتضار التي يتم من خلالها شرح عالم الموت مع ربط الخيال بلغة ثقيلة الوطء لكنها آسرة.

يُجيب سنان بطرس بحالة من الضيق:

- يا صديقيّ، أنتما لم تفهماني ولم تفهما مقصدي، إن حيرتي تتمثل بكون الرواية معاصرة جدًا، تنبثق آنويًا من اللحظات التي نعيشها اليوم وغدًا، وكِلا الظرفين لا يسمحان للفرد أن يكون مُلمّـًا بكل الأحداث المتواترة لشدّة سرعتها.

يجيبه د. سليم:

- تقصد التهديد القادم من داعش؟ -يجيب على الفور-
- داعش وغيرها، الأحداث كلها متشابكة ومتداخلة ويصعب الفصل بينهما أو التكهن بما سيحصل عمومًا.
- ينصحه حسن الحمود:
- لِمَ لا تنتظر حتى ينجلي كل شيء، إن هي إلا لعبة تحكمها السياسة، وكل لعبة لا بد لها من انتهاء يومها، ربما ستجد ضالتك.
- لا أستطيع يا صديقي، هي في داخلي كالأرضة تنهش بكياني من الداخل بصمت.

يقترح د. سليم عبد الصمد:

- لِمَ لا تسافر؟

ينظر سنان بطرس في تقاطيع وجه الشاعر حسن الحمود، ثم ينفجران ضاحكين. يستغرب د. سليم عبد الصمد من ضحكهما، يستفسر عن السبب، يجيبه حسن الحمود:

- سنان مهدد بالطرد من شقته ؛ لأنه لم يسدد بدل إيجار السكن منذ ثلاثة

أشهر!

- يستغفر د. سليم عبد الصمد الربّ ثلاثًا، يستنشق سنان بطرس نَفَسًا عميقًا وهو يقول:

- الفقر لا يحتاج إلى الاستغفار، قدر حاجته إلى التغيير.

يكره د. سليم عبد الصمد في الغالب، الخوض في الشأن السياسي، يقول ناصحًا:

- اسمع صديقي، ابتعد عن الشد والضغط النفسي ودعها هي من تكتبك، وإياك والوقوع في المباشرة والتقريرية.

- نعم تلك أفضل نصيحة. -يعاضده حسن الحمود-

يلتفت د. سليم إلى حسن الحمود قائلًا:

- لِمَ لا تُسمعنا شيئًا من آخر ما كتبت؟

يجيب حسن الحمود منشرحًا:

- على الرحب، على الرحب.

يمد يده الراعشة في جيبه، يُخرجُ بعضًا من قصاصات ورق ملأى بالشخابيط، يتلو على مسامع صديقيه الأثيرين إلى قلبه شيئًا من فوضاه.

رغم آماله العريضة

ضاقت عليه

الآفاق

***

طويلة جدًا

ومليئة بالأشواك

دروب الحرية

***

عندما أُطفِئتِ الأضواءُ

في الصالة

اتسعت

حدقة الظلام

***

حين زُجّ بهِ في السجن

أمسكَ سكينًا

وقطعَ أذن الحائط !

على وقع عبارات الاستحسان والإحساس بالألم، انفضّت جلسة الثلاثة على أمل اللقاء مجددًا يوم الجمعة القادم، للتعرف على المجاهد أبي حسنين، ذهب سنان للقاء صديق تشكيلي، ود. سليم عبد الصمد إلى المسجد، بينما اتجه حسن الحمود للتسكع وقد ألمّ به الحزن الشديد للنص الأخير الذي تلاه.

حين زُجّ بهِ في السجن

أمسكَ سكينًا

وقطعَ أذن الحائط

وحده هذا النص من عاد به إلى سنين خلت، سنين مضنية، قاسية، مخيفة، وجد نفسه بعد توديعه لصديقيه سنان وسليم يعاني من تقلصات مؤلمة وفراغ جهة القلب، يقرر أن يمشي وحيدًا، يمسح عن جبهته ووجهه حبّات عرق أخذت تحتل تضاريس جبينه ووجهه الستيني الهرم.

أخذ ينبش في أنقاض أحداث قديمة بحثًا عن حقيقة ما آل إليه الحادث، حقيقة العقل عندما يغدو مجنونًا، والمفاهيم عندما تنقلب نكوصًا والجمال عندما يتحول قيحًا والموت عندما يكون صنوًا للحياة خارج نطاق اللامعقول.

حسن الحمود شاعر جنوبي نزح من البصرة إلى مدينة الثورة بداية ستينيات القرن المنصرم، ليندغم فيها «شروكيًا» من بقايا ملايين بشرية مسحوقة حشرهم عبد الكريم قاسم في بيوت صغيرة لا تتعدى المائة والأربعين مترًا، جهدت في كيفية أن تُكّون مجتمعًا محافظًا ومثقفًا تحول إلى مجتمع منحل وجاهل على يد رجل أرعن اسمهُ الطاغية.

يصف الجميع حسن الحمود بالشاعر المجنون، بنصوصه بسيطة التراكيب ما فوقية العمق والمستوى، وهي تفلسف للحياة وللواقع على ما فيه من غرابة وحقائق مرة.

يسعده نعته بالشاعر المجنون من الأصدقاء والمعارف ويستفزه أيضًا، كثيرًا ما كان يطيل التفكير والتحديق بوجهه عبر المرآة، يحاور ذلك الوجه المُجهد من أزمنة الغرائب والخراب الذي حلَّ بالآخرين عندما تحولت دور العبادة إلى ساحات

للإعدام وقاعات المسارح إلى معتقلات للتحقيق.

يمارس تفاصيل الحياة بطريقة اللاجدوى حتى يكاد يقترب من العدمية في سلوكه العام إنسانًا طيبًا وشاعرًا رقيقًا، تكمن خطورته وروعته بما يحمله من فوضوية العيش التي يُمارس من خلالها فوضى اللاجدوى وبراءة الأطفال بشكل متداخل يصعب فكَّ شفرته، هو الذي يحمل على كتفيه ومعصمه الأيسر أعباء سجنه المؤبد والتعذيب الجسدي الذي تعرض له في معتقلات وزنزانات الأمن العامة، ومعجزة خلاصه من الإعدام في سجن الأولمبية ومعتقل الرضوانية، يحث خطاه على قارعة طريق خالٍ، يتلو شعرًا على نفسه:

غيوم كثيرة ذهبت

وغيوم كثيرة ستأتي

هكذا هي حياتي

***

ذهبنا عبر الزمن

وبقينا نحن

أنا والمكان

***

أمامي صور لأصدقائي

لا أرى بينهم

نفسي

***

يلفه الحزن كما هو عهده، يسترجع كما في كل يوم لحظات الرعب قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وهو يقف في الطابور المفضي إلى حبل المشنقة حاملًا تسلسلًا وسطًا بين اثني عشر محكومًا بالإعدام، ستة أمامه، وخمسة بعده.

يومها، فكر كيف أنه سيرى ستة رجال أبرياء أو ستة أحلام تُتدلى مطفأةً بحبال مشانق الباطل؟! وكيف سيواجه كل واحد منهم مصير الموت البشع، متدليًا بحبل ظلم متين؟! هل سيبرز منهم من يضحك على موته وعلى الطغاة؟ هل سينهار أحدهم ويتوسل جلاّديه قبضة من حياة؟ هل سيتغوط أو يتبول أحدهم على نفسه أو على قدسية بدلة الإعدام الحمراء معلنًا عن تغوطه أو تبوله على قداسة النظام؟!

عند التسلسل الخامس تمامًا، وفي اللحظة التي تدلت فيها رجلي ذلك السجين المعدوم الذاهب إلى الموت بوجه يسكنه الخوف والصمت، أوقفت عملية الإعدام بعفو غريب حمل صفة المُعجزة، يومها ضحك حسن الحمود ضحكة كانت أقرب إلى النشيج المصحوب بخوف قاتل بعد أن عرف إنه أفلت من قبضة الموت شنقًا، ثم أُرجع إلى الزنزانة، يومها حاورَ نفسهُ بألم:

- كنتُ صفرًا على شمال الحياة.

يستعيد شريط الذكريات المُرّة مجددًا، يتذكر كيف أنهُ وهو في طريق العودة من مصير الموت إلى وحشة الزنزانة، قرر مع نفسه أن يواجه الظلم بالكتابة، لحظتها، كان ناقمًا من كل شيء، من النظام الدموي، من حقبة البعث برمتها، من الأحداث الممتدة من ثلاثة عقود أو أكثر كانت كافية لتقود العقلاء إلى الجنون، من أجل هذا استهوته فكرة أن يكتب يومذاك، في اللحظات التي سُحِلَ فيها إلى زنزانته كان وقع

خُطى أحذية الجلادين يرتفع عبر البلاط القديم بإيقاعات مرعبة ومتداخلة، كان قد كتب في دفتر مذكراته عن فترة السجن متحدثًا عن تلك اللحظة الفاصلة التي نشبت فيها أكفهم في زنديه كالمقاريض، متسائلًا عمّا يمنعه من هزيمة هؤلاء، لم يقصد كتابة الشعر فهو حاضر لديه في كل سكنات حياته حتى يكاد يستنشقه ويزفره ويسعله ويعطسهُ، لكنه قرر أن لو قُدَّر له الخروج بمعجزة تشبه معجزة إعفائه من الموت شنقًا فإنهُ سيكتب سيرته الذاتية دون أن يُسقط منها تفصيلًا واحدًا، سيكتب عن السياسيين والمثقفين، من صمد منهم ومن خان، استذكر بوجعٍ كيف أُلقيَ به إلى جوف الزنزانة الرطبة والمظلمة، وكيف أنه كان فاصلًا، ذاق طعم الخوف في أقصى حالاته، لكنه لم يستلذّ بنشوة النجاة من الموت شنقًا، ليلتها، استند على نتوءات جدار الزنزانة مستمرًا باسترساله الداخلي، من كونه لم يكتب يومًا ما، يستحق أن يُجنّس كأثرٍ أدبي يُعتدّ به، وإنه لم يفكر يومًا بالانضمام إلى قوافل الكُتّاب والمبدعين خصوصًا الروائيين والشعراء منهم، لكنه قرر أن يكتب سردًا أكثر شبهًا بلغة الشعر، فهو منذ عقود لم يُمارس قبل سجنه هذا غير تجارة الكتب والقراءة، فما الذي سيمنعه عن الكتابة إن أفلت من قبضة زنازين البعث؟

قرر أن الناس والمدن والأحداث الماثلة أمامه، كل ذلك سيكون مادته التي ستتعكز عليها سيرته الشخصية، قرر كسر الحاجز الذي يفصل بين عاقل ثائر ومجنون مستكين، كي يصل إلى الجواب الشافي لكل أسئلته الكونية وليمت بعدها.

الزنزانة التي احتوشت كيانه في تلك الأعوام الغابرة كانت قريبة الشبه بالعلبة الصدئة -هكذا وصفها يومًا-كانت بابًا مؤصدًا على أحلام مؤجلة أو على موت مؤجل في كل لحظة، جدار شاشته أضلاع متداخلة مع بعضها تعلوها النتوءات،

بلاط قديم متآكل يحمل عفونة أجساد سِيقت إلى الموت وتركت آثارها المتيبسة، مصباح خافت قديم يتدلى برتابة، لا شيء غير ذلك.

ليلتها كان يتوق إلى معجزة أن يمتلك ورقًا وقلمًا وسط ذلك المكان الموحش ليسطر ما يمرُّ في دواخله.

حين لم يجد شيئًا يكتب به أو عليه، جمّع شيئًا من التراب الرطب المتواجد بين فتحات البلاط المتآكل، وخطّ فوقه بإصبعه:

من يجلو

عن ظهركَ

صدأ الحرية؟

جفل من صوت منبه سيارة مسرعة كادت تدهسه، ركزّ في عيني السائق المتقدّتين غضبًا، يبتسم، يرفع كفّه بتحية اعتذار:

- آسف جدّا. -يسمع صوتًا غاضبًا-

- حمار. -يقهقه بصوت مسموع-

يُجيب:

- شكرًا لكَ يا طيّب على هذا التقييم.

يتهكم حزينًا: حماااار؟أخيرًا جاء من يُقّيمني بعد كل هذا العمر الطويل، ليتني كنت حمارًا لكي لا أشعر بما شعرتُ بهِ من لسع السياط وقسوة وآثار العِصي، ولكن

أصحيحٌ أن الحمار لا يشعر بالألم الناتج عن لسع السياط ووطأة العِصي ولهذا سُميَّ حمارًا؟

هنيئًا للحمار، إنهُ لم يكن مواطنًا في مدن وأزمنة الخراب، لكان تعصّبَ وتحزّبَ، ولكان عانى من أزمات التجويع والترويع والبطالة والتهميش والقتل على الهوية.

الحمار، ملكٌ في حموريته واستقلاليته، هو أكثر الكائنات قبولًا لذُلّته وهَوانه، لا يملكُ مشاعر جيّاشة، حتى أنه إذا ما رأى ظلمًا اعترض عليه بنهيق يشبهُ البُكاء، ولكن ماذا لوكان الحمار شاعرًا؟ أيّ نصوص غبية كان سيكتُب؟ الفارقُ الوحيد بيني وبين الحمار: أن المبدأ أحالني حمارًا لأدخل بسببه السجن، أما السجن فأحالني شاعرًا لأعيش حمارًا، بينما الحمار حمار في الزريبة ووسط الشارع وهو يُمارس حقوق غريزته وحقيقة وجوده ذليلًا بصبر لا ينفد، هو لا يقاتلُ مثلنا، أما نحنُ فحمير غبية، نقاتل ونستقتل على الشِعر، بينما يكتفي هو بالشَعرِ وبالشعير! كلانا مغضوب عليه من حمير أقوى وأكبر.

يواصل تسكعهُ عبر متاهات اللا أين مُنشدًا تارة، ومتمتمًا بالشِعر تارة أخرى، وما بين الإنشاد والتمتمة لا يتورع عن إطلاق بعض الشتائم على كل شيء ما برح يراهُ لا شيء البتّة.

الأنبار/ على خلفية معارك الأنبار- الرطبة

ليلة من ليالي الخوف

في ذروة مراحل الاحتدام بعد قيام الجهات الأمنية بفض مخيم الاعتصام في الثلاثين من ديسمبر، قامت جهات قبلية مسلحة بتوجيه سلاحها ضد القوات العراقية التي تحاول بسط نفوذها وفرض النظام على كل فوضى يمكن لها تدمير الناس والمدن، اضطرت القوات العراقية الى الانسحاب ومحاولة إيجاد حلول تهدئة تجنب العراقيين مخاطر الاقتتال، نزغَ نزغُ التنظيم الداعشيّ ليحتلَّ أجزاءً من مدينتي الفلوجة والرمادي داخل أراضي محافظة الأنبار، ساعده في ذلك التسليم العجيب لتلك الخيانات القبلية التي بايعت التنظيم على السمع والطاعة ليعلن ذلك التنظيم الشرير تلك المناطق المحتلة (دولاً مستقلة) في تصريحات تبعث على السخرية وهو لا يفرق بين مصطلحي الدولة والمدينة! وجدت الحكومة العراقية نفسها في حرج كبير وهي تسلم إدارة الأنبار الى الشرطة المحلية والاتحادية خصوصًا وهي التي كانت تتولى ملف العمليات العسكرية ضد (أوكار القاعدة)، وحين أُسقط بيدها وأصبحت الأنبار محتلة من الدواعش بررت ذلك الإخفاق ببيان بائس جاء فيه (إن فض الاعتصام جاء استجابة لكثرة المناشدات من شيوخ العشائر ورجال الدين

والحكومات المحلية التي وصلت لدرجة التوسل والأستغاثة).

في الثاني من يناير من العام ٢٠١٤ كان تنظيم داعش في العراق والشام، يسيطر على نصف الفلوجة، الأمر الذي اضطرت فيه الطائرات العراقية الى قصف المسلحين المتمركزين في قضاء الرمادي، لتشهد المحافظة بعض الإقالات في جنرالات الجيش العراقية واستبدالها بجنرالات أخرى.

في السادس من يناير وصلت الاحتدامات ذروتها لتوجه الحكومة العراقية نداءً طالبت فيه أهالي الفلوجة وعشائرها بطرد الإرهابيين من المدينة حتى لا تتعرض المدن والأحياء الى أخطار المواجهات المسلحة القادمة.

كذا أصبحت الأنبار تحت سيل الضربات الجوية التي بلغن اربعمائة ضربة جوية في يوم واحد، فضلًا عن تحشدات كبيرة لفصائل المقاومة والحشد الشعبي والقوات العسكرية وإحكامها اطباق القبضة على مداخل ومخارج المحافظة بالكامل.

ليضطر التنظيم الى التوجه صوب الرطبة التي تقع الى الغرب من محافظة الانبار، تلك المدينة الوادعة التي يسكنها قرابة الثلاثون ألف نسمة جلهم من المزارعين المسالمين واحتلالها والسيطرة على مقدراتها في ٢٢ يونيو ٢٠١٤ ولمدة عامين.

استفاقت سعاد مندل، كغيرها من الأهالي على واقعها الجديد سريع الإيقاع، ما أن ترك لها زوجها بيتًا مريحًا ومالًا ووصية لولده ولأحد المحامين للشروع بإنجاز معاملتها التقاعدية، وجدت أن ولده الذي كان قد استقرّ بعد مرحلة سقوط النظام في سوريا مع زوجة سورية وثلاثة أولاد، يزورها زيارة خاطفة بعد وفاة أبيه فيقدم لها التعزية والشكر والعرفان، كونها سيدة محترمة لم يسمع عنها أو يرَ منها ما يُشين، هي

أيضًا قدمت له التعازي ومكنته عن طريق المحامي من الاطلاع على وصايا المرحوم والده، كان اللقاء رتيبًا بسيطًا، كأنهما يستعجلان إجراءات توزيع الإرث والتخلص من أعباء تركة الآخر، على الرغم من كونه قدم لها دعوة صادقة للانتقال الى سوريا والعيش معه وسط عائلته، قبل أن تعتذر بأدب جم، يومها اكتفى ابن زوجها بتناول فنجان قهوة، ثم نهض ليوُدع في كفها مبلغًا معتبرًا من المال، وعبارات عهد أن يكون لها سندًا لها متى ما احتاجته، ثم اتفق معها على إتمام إجراءات القسّام الشرعي برفقة عمه والمحامي، بما يكفل لها حياة كريمة رغم قسوة الظروف وتهديدات داعش، حصل هذا قبل أن يودعها الى الأبد بعد انتهاء إجراءات القسّام الشرعي.

ركنت إلى سكينة وادعة بعد انتهاء مرحلة توزيع الإرث بينها وبين ابن زوجها وعمه كما نصّت الوصية، وصارت تطيل التفكير في الكيفية التي ستدير بها حياتها في ظل الأوضاع الخطيرة التي تشهدها الأنبار والمدن الغربية، قبل أن تصاب بما يشبه اليأس والقنوط من الأحداث التي تسارعت تباعًا، الأمر الذي أجبرها على تكليف المحامي بإيداع أموالها ومصوغاتها في مصارف بغداد، ودفن القليل من هذه المصوغات والأموال بما يكفيها لتدبير أحوال المعيشة، في ظل الأوضاع التي تدهورت سريعًا، حتى تفاجأت ذات ليلة مخيفة، مضطربة الوقائع، حين طُرق عليها الباب ليلًا بقوة! استفهمت عن هوية الطارق:

- منو ؟!

أجابتها أصوات رجالية مخيفة:

- نحنُ دولة الخلافة، افتحي الباب.

- أنا امرأة وحيدة.

- ونحن جئناك لأجل ذلك.

حين فتحت الباب وجدت نفسها أمام وجوه مختلفة الألوان واللهجات والسحنات، مجاميع متشحة بملابس رثة سوداء الألوان، وتسريحات شعر طويلة بخصل وجدائل منسدلة يعلوها الغبار، وكان الجميع يحمل أسلحة نارية من قاذفات الى بنادق وغدّارات رشاشة وحراب، أرجعتها الذاكرة لتستذكر أحدهم، كانت تعرفهُ جيدًا، كان اسمه عبد المنعم، جمعتها به مشكلة حصلت لها يوم ذهابها للقسّام الشرعي، لمحته يتقدمهم، هو بدمه ولحمه وإن غابت عنه نَظارة الأمس، شهقت بوجهه:

- ألستَ عبد المنعم؟

صوّب أحد الدواعش فوهة بندقيته إلى وجهها ناهرًا:

- تحدثي بأدب إلى الأمير أيتها الأمّة.

أجابته بجسارة:

- أمَة بعينك.

رفعت يدها لتصفعه فأمسك عبد المنعم معصمها بقوة حتى كاد يهشمه، جرّها الى الداخل، أدخلها الى مخدع نومها، ترك معصمها، سألته بخوف:

- شتريد؟

قال:

- إياكِ أن تستفزي داعشيًا.

- يعني جايني بأنصاف الليالي حتى تكلي هاي النصيحة؟

أحكم قبضته على شعرها بقوة، أمال رقبتها يمينًا وشمالًا، حتى كاد يخلعها، لم تظهر توجعًا، تصالبت بقامتها أمامه قائلة:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

أطبق شفتيه على شفتيها بقسوة، انتفضت بجسدها معترضة، ترك شعرها، أطبق بكفه على رقبتها حتى كاد يغمى عليها، أجابته بصوت مخنوق:

- مو سألتك شتريد؟

- أريدكِ أنتِ، أنا الأمير هنا، أنا عبد المنعم أبو عبد الله، اعتبري نفسكِ جارية لي.

ألقى بجسدها على السرير وخرج مغاضبًا، فلم تمتلك غير أن تبصق خلفه بغضب.

حن تيقنت من خروجهم، ركضت باتجاه الباب وأحكمت إغلاقه، أسندت ظهرها إليه، ثم انهارت باكية.

- يا رب، أنا وديعتك فأحفظني.

ليلتها، وحين جافاها النوم وسط ظلام المخاوف والانهيارات، امتدّت بها ذاكرتها الى ذلك الضحى الحافل بالرسميات، حين تعارفا داخل أروقة بناية المحكمة والقسّام الشرعي، بموقف متوتر اشتبكت فيه معه بمشادة كلامية، بعد ذكره للنساء

بما لا يليق، معللًا كثرة حالات الطلاق- بسبب تحلل المجتمع وابتعاده عن الله وسُنّة رسوله، وكيد وفساد أخلاق النساء، بسبب أجهزة الاتصال وما تعرضه القنوات الفضائية من عُريٍ وفجور- كان يتداول الحديث مع رجال مسنين، دون أن ينتبه لجلوس سعاد مندل على مقربة منهم، إذ تفاجأ بردة فعلها المتوترة:

- يعلم الله وحده، أن كل تعاسة تصاب بها النساء سببها الرجال ليس غيرهم.

شعرت بانقباض وهي تقارن بين عبد المنعم الأمس وعبد المنعم اليوم، كان عبد المنعم الأمس، رجل يتمتع بجسد موزع بعناية وصوت جهوري بقرار عميق، كان يمتلك شعرا فاحما مجعدا خالطه الشيب الرمادي وقد انسدل على كتفيه وانسحب ذلك الشكل على شاربه ولحيته باستدارة وجه عظيم الوجنتين متورد الخدين، بحاجبين عريضين يعلوان عينين سوداويتين كحيلتين، متقدتين وفم واسع بشفتين مكتنزتين تكشفان عند صفي أسنان كالبرد منحتاه ابتسامة مشرقة وإن كانت له تقاطيع تنمّ عن تجهم مفتعل، لم يتسق مع ذقنه جميل اللحية، التي تتصل بصدر عريض مشعر وبطن مشدودة وساقين قويتين بفخذين عظيمين وجسد مبني ببراعة يغزوه الشعر ومشية واثقة تدل على العافية.

استذكرت وهي في ذروة خوفها من تلك الزيارة المرعبة كل تفاصيل تعرفها عليه، بعد حادثة سوء تفاهم بينهما وسط دائرة القسّام الشرعي وهي تراجعها رفقة أحد المحامين بغية إتمام معاملة تقاعدها أرملة لرجل عجوز أمضت معه أربع سنوات باردة، استذكرت حالة انتباه ثلاثة من الرجال لردة فعلها العنيفة وكيف أن رجلين منهم لم يجدا وسيلة لترضيتها غير الاعتذار، بينما اكتفى الثالث بصمت يدل

على حرج كبير.

وحده عبد المنعم من دخل معها بمماحكات وقحة كادت تؤدي إلى اشتباكهما لولا تدخل المراجعين بالتزام جانب الهدوء بسبب التوتر الحاصل في المدينة، وكيف انهما انصاعا للأمر فتفرقا الى مكانين قصيين تجنبًا، استذكرت كيف أنه همس في أذنها مبتعدًا:

- حقيرة، تمنيتك رجلًا.

لتردّ عليه بعدوانية ظاهرة:

- تافه، خبيث، خنيث.

أجابها بلطف:

- نعم صدقتِ، أنا من أنزل آدم من الجنة، وأنا زليخة.

إلتزمت الصمت والهدوء، بينما كانت الكثير من السحنات والوجوه تتخاطف أمام ناظريها لمراجعين متعبين وخائفين، لتنتبه إلى اشتراكها مع أغلب الموجودين بثرثرات طويلة لا رابط بينها، ومثلها فعل عبد المنعم لم يستطيعا إخفاء حقيقة فشلهما في التخلص من توترهما حيال بعضهما البعض بسبب ما حصل، وكيف أنها حين هدأت النفوس وكادت حركة المراجعين أن تختفي وتتلاشى وسط قاعة الانتظار تفاجأت بعينين نافذتين تجولان في تقاطيع وجهها وجسدها وتخترقان سواد عينيها، كانتا عيناه!! يومها قرأت في عينيه بحدس الأنثى، وبمجسات الأرملة الشابة، كيف أن الخجل كان مسيطرًا عليهما لأنه أساء إلى امرأة حزينة لا يبدو على ملامحها الجميلة غير الانكسار، تذكرت جيدًا كيف أنها واجهت لُطفهُ بحركةٍ هازئةٍ مطّت بها شفتها

السُفلى بشكلٍ طفوليٍ بريء، احتجاجًا على نظراته المصوبة إليها، تلك الحركة الفطرية أعملت في دواخل عبد المنعم حالة من الشغف وشجعته على تقديم الاعتذار لها، ومن ثم العمل على التعرف عليها أكثر - كما أخبرها لاحقًا- كانت قد انشغلت بالتحدث إلى المحامي الذي أخبرها بحاجته الى إثنين من الشهود العدول لتكملة إجراءات معاملتها.

أخبرته عن عجزها بتوفير مثل هذين الشاهدين بسبب سفر ابن زوجها إلى سوريا، تفاجأت بعبد المنعم يقف قبالتها بقامته المديدة مقدمًا لها جملة من الاعتذارات بسبب ما بدر منه، حاولت أن ترسم على وجهها صورة لتوتر جديد، لكنه وبعد أن ألقى التحية على الأستاذ فاهم المحامي قال لها بأدب:

أتمنى عليكِ قبول اعتذاري.

لم تتفوه بكلمة، لكن المحامي سأله على عجل:

- هل أنتما على خلاف؟ -ردّ-

- كلا أخي، إن هو إلا سوء تفاهم بسيط.

قال المحامي:

- خير الناس من نفع الناس، وخيرهم من بادر بالاعتذار، الاعتذار ثقافة مفتقدة -أجاب- ولم انتبه لوجودك وها أنا اعتذر مجددًا، لم أكن مؤدبًا بالمرّة.

قال المحامي:

- ما رأيك أن يكون قبول الصلح مقرونًا بشهادتك لموكلتي من أجل إكمال معاملتها التقاعدية؟

- ردّت سعاد بتوتر-

- لا لا لا غير ممكن.

ما كانت لتحب أن يعرف أنها أرملة.

ردّ بحماس:

- سيكون ذلك من دواعي سروري.

وقف كل منهما قبالة الآخر، تبادلا نظرات سريعة في لحظات قصيرة، ذهب المحامي لجلب الشاهد الثاني، يومها تهيأت لعبد المنعم فرصة معرفة اسم وعمر ولقب ومحل إقامة هذه الأرملة الشابة، بينما عرفت لاحقًا اسمه ولقبه وتولده ومحل إقامته وهاتفه المحمول.

على هذه الشاكلة افترقا وثمّة إحساس لا يخطئ لكليهما من أن ثمة لقاءات أخرى ستحصل لا محال، تذكرت كيف توادعا بطريقة باهتة، باردة وسط تلك الدائرة التي كانت تمور ببقايا مراجعين راحوا يقصّون على بعضهم سيرًا مزوقة لحياتهم الخاصة المنصرمة.

انقطع سيل الذكريات فجأة، ليعيدها الى الواقع المر وواقعة هذه الليلة المخيفة، أحكمت إغلاق وإطفاء كل شيء، ليلفّها ظلام اندسّت فيه تحت غطاء الوحدة مرتعدة، خائفة من الآتي من الأيام، ولم تقوَ على شيء غير اجترار الذكريات واسترجاع ملامح وجوه الآخرين دون أن تُفلح بنوم هانئ.

حي أور/ بيت د. سليم عبد الصمد

أواخر العام ٢٠١٣م

كانت جمعة مميزة تلك جمعت د. سليم عبد الصمد بصديقيه سنان بطرس متي وحسن الحمود، على روائح السمك المشويّ، ومائدة الطعام المميزة للبيت العراقيّ، التي تأخرت لعدم وصول المجاهد أبي حسنين، بسبب زحمة الطرقات والقطوعات المعتادة أيام الجُمَع، تجاذب الثلاثة الكثير من الأحاديث التي ابتدأت بهموم الثقافة والأدب مرورًا بالظواهر الاجتماعية السلبية التي كانت تنخر بجسد المجتمع من أقصى الوطن إلى أقصاه، انتهاءً بجرائم القاعدة في مختلف بلدان العالم وقسوتها في سوريا والعراق أكثر من سواهما من البلدان العربية.

كانت نقاشات د. سليم هي الأكثر جدية، واكتفى حسن الحمود بتعضيداته ومداخلاته التي عبّرت عن مثقف خبير، بينما اكتفى سنان بمداخلاته الطريفة، ومرحه اللا محدود الذي تُخفي دواخله ألمًا إن انفجر فلا سبيل لصدِه.

قال د. سليم لصديقه سنان:

- هل تعلم يا صديقي سنان، أن تنظيم القاعدة ظهر على ساحة الاحداث

بعد عام من احتلال العراق وسقوط نظام الدكتاتورية. -رد سنان-

- كلا يا صديقي، في الواقع أنا لا أعلم شيئًا، لقد كنت نائمًا على السطح.

إبتسم د. سليم بحرج، لكنه أطلق ضحكة خفيفة حين علم أن سنانًا يمزح معه فاسترسل.

- نعم يا صديقي، اعلم أن تنظيم القاعدة تنظيم تأسس بصبغة عالمية بخصوم دوليين مثل العراق، سوريا، إيران، السعودية، روسيا، مصر، تركيا، تونس، باكستان، الولايات المتحدة، لبنان، ليبيا، الجزائر، اليابان، الأردن، قطر.

قال حسن الحمود:

- سبحان الله، أغلب هذه الدول التي ذكرتَ هي حواضن دولية للتنظيم، ومن أغلبها صدّرت السلفية الوهابية إرهابييها للعالم، أو قل للعراق وسوريا تحديدًا.

- نعم أخي حسن منذ العام ٢٠٠٤ صعودًا انبثقت تنظيمات مسلحة بعنوان مقاومة الاحتلال الأمريكي والحلفاء، ومنها جماعة التوحيد والجهاد وجيش المجاهدين وجيش خالد بن الوليد وجيش محمد، ثم سرعان ما نشؤوا كحلفاء وكجزء من تنظيم القاعدة.

أكد حسن الحمود:

- صدقت دكتورنا، ففضلًا عن الدول التي ذكرتها كأهداف دولية، استهدف التنظيم خصومًا غير دوليين، مثل الجيش السوري الحر والحرس الثوري

الإسلامي وحزب الله اللبناني وقوات الحشد الشعبي العراقي.

قال د. سليم مؤيدًا:

- نعم وأضِف لهم قوات سوريا الديمقراطية و كردستان العراق ممثلًا بقوات البيشمركة وأسد الله الغالب في العراق والشام و جيش المؤمل، بل وحتى كتائب البعث، هذا الخلط العجيب منح التنظيم الفرصة لمعرفة التوجهات كافة، مَن لهم ومَن عليهم، والبعض من هذه القوى المتبنية لفكرة التشدد عملت لاحقًا على الانسلاخ من جسد تنظيم القاعدة، ليؤسس تنظيم داعش الإرهابي.

قال سنان وهو يلعب جولة شطرنجية من خلال شاشة موبايله:

- أعتقد أنك تضخم الأمور أخي د. سليم، ليست القاعدة ولا حتى تنظيم داعش، بالتنظيمات المنضبطة أو المؤدلجة فكريًا، أنا أراهم شراذم من مجاميع مرتزقة من عبدة المال والشهوات، عبثوا بالحياة تحت أغطية دولية، وما يثبت صحة كلامي أن أغلبهم من سقط متاع المجتمعات من المشردين واللوطيين والمغسولة أدمغتهم بفكرة التشدد الديني، يقيئهم القبح كما لو كانوا قيحًا.

قال د. سليم مبتسمًا:

صحيح جدًا يا سنان، لكن لطفًا ابتعد عن توصيفاتك الروائية في حديثنا عنهم.

ضحك سنان قائلًا:

مثل ماذا دكتورنا؟

أجابه حسن الحمود:

مثل: يقيئهم القبح كما لو كانوا قيحًا (أخ الأخّل).

ارتفعت ضحكاتهم فقال د. سليم مؤيدًا:

-ما تفضل به سنان صحيح جدًا يا حسن، لقد تمكن هؤلاء من التأثير على التفكير الجمعي عبر شبكات التواصل الاجتماعي، أصبحوا معروفين بكمّ الفيديوهات التي قاموا بها بقطع رؤوس الأبرياء من المدنيين والعسكريين والصحفيين بل وحتى العاملين في الإغاثة، وبتدميرهم للآثار والمواقع الأثرية والمراقد المقدسة.

أجاب حسن:

- إنهم متهمون بالتطهير العرقي، ولم تعكس ممارساتهم وأخلاقياتهم التعاليم الحقّة للدين الإسلامي.

- نعم، نعم، لقد حادوا جدًا عن الصراط الحقّ للإسلام، وآذوا كثيرًا بقية الطوائف والمِلل. فضلاً عن أساليب القتل الوحشي الممنهج بالأحزمة الناسفة والمفخخات. -رد د. سليم-

قال سنان معترضًا:

- أنا لا أثق بالعالم كله، وأرى الأمر ليس أكثر من سيناريو محبوك.

اعترض د. سليم:

- سنان، سنان، ما هكذا يقول المنطق يا صديقي!!

كانت قد انشغلت بالتحدث إلى المحامي الذي أخبرها بحاجته إلى إثنين من الشهود العدول لتكملة إجراءات معاملتها. تساءل سنان بطرس:

ولكن، لِمَ كل هذا برأيك يا دكتور؟

أجاب د. سليم عبد الصمد بحكمة:

- بسبب تفعيل فكرة تقسيم العراق لثلاث دول: دولة كردستان، الدولة الشيعية بالجنوب، الدولة السنية، وهو حلم بريطانيا وأمريكا والصهاينة قطعًا، وصولاً لإضعاف العراق.

أغلق سنان بطرس جهاز الاتصال بضيق ظاهر وهو يسأل د. سليم:

- معذرة حبيبنا د.سليم، أهي وليمة أم اجتماع حزبي؟ وأين صديقك شيخ المجاهدين عمر المختار؟ أطلق د. سنان ضحكة مجلجلة وقدم اعتذارًا كبيرًا له ولحسن الحمود، ثم سرعان ما أمّنَ اتصالًا مع المجاهد السيد أبي حسنين، فأخبره الأخير أنه قريب جدًا من الوصول إليهم.

قال حسن الحمود بمرح:

- إنها جمعة قبيحة الحوار، كما لو كانت تقيء قيحًا.

أطلق الثلاثة ضحكات ودٍ عالية النبرة وهم يتهيؤون لاستقبال الضيف الجديد.

مضى من الوقت ما يقرب من الساعة، ولم يصل أبو حسنين لبيت د. سنان،

حاول الثلاثة قتل الوقت بإطلاق الطُرف والنكات وقد تمتعوا بروح مرح عالية، كانوا يمسرحون نكاتهم بحركات تصدر عن أجسادهم، ويغيرون من نبرات أصواتهم بما يتلائم وجعل النكتة قوية الوقع.

انتقل بهم سنان بطرس متي الى واقع البيوت العراقية مستذكرًا تفاصيلها الحميمة في سبعينيات القرن العشرين، فشاركاه ذلك الاستذكار وهم يطلقون ضحكاتهم العالية التي أضافت إلى المكان حميمية معهودة .

قال سنان:

- من يتذكر منكما عبارة الأب العراقي الدائمة لحظة يغضب على أولاده.

أجاب حسن الحمود ضاحكًا:

- (انعل ابوكم لا بو الخلفكم).

- فما الذي كانت تتركه الأمهات في أكياس التمن؟

رد سليم مقهقهًا:

- كوب، كوب ياسنان، الله.

قال حسن الحمود وقد أغرورقت عيناه بالدموع:

- كل عائلة عراقية تخرج للنزهة، تنتهي نزهتهم بـ(عركة).

- أردف سنان:

- مصابيح المطابخ مشتعلة ليل-نهار فإذا ما انطفأت يعرف الجميع أن اليوم قد انتهى.

صحح د. سليم:

(لك لا) إنهم يتركون المصابيح مشتعلة عندما يخرجون ليخدعوا (حرامية المنطقة) بوجودهم.

قال حسن الحمود:

- لم يعلم الآباء أن الحرامي، هو حرامي البيت.

قال سنان:

- ملابس العائلة عندما تصبح قديمة تتحول الى (وصل مسح).

ضحك د. سليم بصوت عالٍ وهو يقول:

- دائمًا ما تتحول (كليجة العيد) و(بقايا الخِريط) الى محجرات أثرية، أما صدمة علب الحلويات المعدنية فتتمثل بانك كلما فتحتها فرِحًا تتفاجأ أن أمك قد حولتها الى تجميع (لبكرات وإبر الخياطة).

سيطرت على سنان نوبة من الضحك العالي وهو يسترسل:

- كل مزهرية في (غرفة الخطار) تجد فيها مفتاحًا و ماشة وفلوس نقدية قديمة باطلة وورقة الكهرباء و شريط براسيتول فارغ و باتريات معضعضة واوراق فيها ارقام تليفونات غير معروفة.

ردّ د. سليم:

(نصف النومية حامض) التي تحتفظ بها الأمهات في الثلاجة -أموت وأعرف سرها قال حسن الحمود:

(مقرضة الاظافر) في كل احتياج نجدها دائما مفقودة مع استحالة العثور عليها!!!

قال سنان:

- أقداح الأجبان وبعد أن تنتهي صلاحيتها للأكل تتحول إلى أقداح لشرب الماء والشاي.

قال د. سليم:

- يوم الجمعة الغده دولمة أو وسمك.

أجاب الاثنان:

- وينه عيني وينه؟

قال د. سليم:

- والعباس بس يجي السيد أبو حسنين أصب الغده، قبل الله بالخير.

دقّ جرس الباب فاستبشر الثلاثة:

- يا الله، اجه السيد.

وجاء أبو حسنين.

ألقى بالتحية الحارة على الثلاثة، احتضنهم بقوة ومحبة، كما لو كان حسن الحمود وسنان بطرس من أحبته المقربين، بالحميمية ذاتها التي كانت تربطه بسليم عبد الصمد، قبّل جبينيهما، شفاههما منحريهما، كتفيهما، شدّ على كفّيهما بقوة، قدمّ شتّى أنواع الاعتذارات بسبب تأخره عليهم.

أبدى الثلاثة استقبالًا حافلًا به، قال له سنان ملاطفًا:

- شرفٌ لي أن ألتقيك عن قرب، وأن اتعرف بك أخًا.

أجاب أبو حسنين بامتنان:

- لي الشرف أخي الطيب.

قال حسن الحمود ملاطفًا:

- ليس هذا فحسب، فقدومك يعني بداية المجزرة بأسماك د. سليم المشوية بعد براءة الذمّة عن الفتك الذي ستجده منّا.

ضحك الجميع، وما هي إلا لحظات حتى شرعوا بألذّ الأطعمة وأشهى أنواع السمك المشوي، في جوٍ وديٍ سادهُ الجدّ والمرح.

تكفلت جمعة اللقاء بأبي حسنين في بيت د. سليم عبد الصمد، بفتح الكثير من المغاليق لحياة سنان بطرس متي الأدبية والاجتماعية، شيء يشبه التوفيق الإلهي هو كل ما ربط الإثنين معًا،

وجد أبو حسنين في سنان ما كان يبحث عنه، مثقف كبير بتواضع جمّ، كان البحث عن مثقف بمثل هذه المواصفات أقرب شبهًا بعملية البحث عن ماسةٍ وسط تلٍ من فحم، ربما عُرفَ عن المثقفين نرجسيتهم واعتدادهم وغرورهم المحبب بمنجزاتهم الأدبية التي يرونها أكثر نضجًا واكتمالًا من منجزات الآخرين، فضلًا عن فوضوية بعضهم وأكاديمية وكلاسيكية البعض الآخر، ربما المواصفات الإيجابية متوفرة بشكل كبيرٍ لدى د. سليم عبد الصمد، لكن أكاديميته كأستاذٍ جامعيٍ كانت تمنع أبا حسنين من الاعتماد عليه في مشروع الأرشفة والتوثيق الذي كان يُصرّ على إنجازه في المراحل الراهنة المعبأة بالموت المفاجئ حتى التخمة، أما سنان فكان إنسانًا بسيطًا لا تكلف في سلوكياته اليومية، مثلما كان يحافظ في دواخله على أسراره الخاصة الحميمة بشكل يدعو الى الاحترام، هو لا يثرثر كغيره حول فتوحاته النسوية أو افتخاره بتعاطي الكحوليات أو سرد وقائع يبدو فيها بطلًا كونيًا، تشعر معه أنك برفقة طفل أشيب، نقي، لا حواجز بينه وبين الآخرين، كان يبدو مُشرعًا وفي متناول اليد، لكنه كان صعبًا وعسيرًا على الفك، لم يعلن يومًا عن انحيازهِ لدين على حساب دين، أو مذهب على حساب مذهب، أو قومية على حساب قومية، وجد أبو حسنين صعوبة في فك شفراته السياسية، فهو لم يكن ليبدو يساريًا أو يمينيًا أو متطرفًا أو متشددًا، لم يتصرف يومًا بما يثبت إلحاديته أو تدينه أو حتى وسطيته، وجد اهتمامه منصبًا حول رسالته ككاتبٍ في الحياة لا ينحاز إلا للإنسان ومظلوميته في المُطلق، فضلًا عن رغبته العارمة في فضح الواقع بوقائعه الغريبة كما هي وبلا رتوش أو تزويق، تلك صفات وسلوكيات لطالما بحث المجاهد أبو حسنين عمّن يحملها رسالة ومبتنى، لهذا أدام الصلة فيه طيلة ما تبقى من العام ٢٠١٣ ولم يمنعه عن التواصل

معه غير مهامه وواجباته القتالية كقائدٍ حشديّ، لذلك عبأ وجدانه بمعلومات خطيرة لم تكن يومًا من اهتمامات سنان بطرس.

حتى إن اسمه الذي كان يوحي بمسيحيته لم يشكل عائقًا أبدًا، فالخطر الكامن في مخالب داعش لم يكن ليُفرّق أبدًا بين الأديان والمذاهب والقوميات والمِلل والنِحل، فالكل واقع ضمن مدارات الاستهداف، لذلك عرف سنان عن طريق أبي حسنين بعض ما خفي عن تنظيمي القاعدة وداعش أكثر مما عُرف عنهما كونهما تنظيمين يعتمدان على إشاعة فوضى الدم بشكل مقيت.

كثرت اللقاءات بين الإثنين في بناية مركز الحشد الشعبي العامة، التي يشبه الدخول إليها عملية دخول إلى بناية البنتاغون لشدّة الإجراءات والاحترازات الأمنية، أو في صالة الاستقبال في بيت السيد الذي أجره في (الطالبية) كونه من سكنة النجف الأشرف (حيث تستقر عائلته المكونة من أمه وزوجته وابنته وولديه)، وجد سنان في أبي حسنين عمقًا في الشخصية ودفئًا في إنسانية السلوك، وتواضعًا في المأكل والمشرب وحتى المظهر، فهو لم يرَ فيه رجلًا فائق الأناقة ببدلات رسمية أو اكسسوارات مبالغ فيها مثل تلك التي يتقلدها الرجال الرسميون، مثلما لم يكن يحمل بيده حقيبة جلدية فاخرة، لم يره يرتدي يومًا من الألوان التي تناسب عمره، غير الأسود والصحراوي واللون الفيلي الداكن، كذلك الحال لنوعية أحذيته التي كانت في غالبها من النوع العسكري، الحال انسحب أيضًا عن طبيعة أثاثه المنزلية التي اتسمت بالبساطة الشديدة.

شيء إلهي، روحي، ربط سنان بأبي حسنين، بقامته الرِبعة وجسده المائل إلى

الامتلاء بلا تكرش، والشيب الذي خالط سواد شعره وشاربه ولحيته، فمنحه مهابة الأتقياء، كلاهما وجد في صاحبه تلقائية محببة، مفتقدة، وصراحة معهودة في كل منهما، فسنان يكره الحروب ومن يقومون بها، ويرى فيها عبثًا مقيتًا يقود الى اللامعنى، ولم يكن ليتحّرج من الإفصاح بذلك علنًا، كان من نوعية الرجال الذين يتبنون فكرة صنع الجمال بالدين وبالفن وبإنسانية الإنسان ورقي شبكات علاقاته الاجتماعية.

على العكس من السيد أبي حسنين الذي كان يرى في الدين فكرة أحقية قيادة الحياة والناس، بلا تعصب أو تشدد إيمانًا منه بفلسفة الآية الكريمة (لا إكراه في الدين).

مرة سأل السيد صديقه سنان قائلًا:

- ماهو وضعك الاجتماعي يا سنان؟

أجابه:

- لا شيء، توفي والدي في كندا، ثم لحقته والدتي، تزوجت أختاي في شقلاوة، وأحببت فتاة ولم استطع الزواج منها، وأنت؟
- أنا من عائلة موسوية، من عوائل النجف، جدي لأبي وأبي وأمي وزوجتي وابنتي وولديّ، توفي أبي أولًا بحادث سير في منطقة السهلة، ثم أعقبه جدي بعد عامين بسبب الشيخوخة، وما زلنا نتنعم بعبق الأم أنا وزوجتي وصغاري.

وماذا عن هذا البيت؟ أراه بيتًا عائليًا ولا عائلة.

استغفر السيد ربه ثلاثًا، ولاح في عينيه بريق من دموع حبيسة، قال:

- كان هذا البيت لزوجتي الثانية التي عشت معها عامين قبل أن يتوفاها الله أثناء ولادتها لولدها البِكر، الذي أنجاه الله فأسميته حسن.
- فأين هو الآن؟
- هو في رعاية زوجتي الأولى أم حسن في النجف.
- هل يعني هذا أن لك ولدين يحملان الإسم نفسه؟
- نعم.
- نعم، (ده ربنا ليه حاجات يكدع)، قالها بمرح، فرد السيد ضاحكًا:
- بعد وفاة زوجتي الثانية، وكانت من بغداد، رزقني الله بولد جميل أسميته حسن، اعتزازًا بولدي البِكر من زوجتي الأولى فتقرر أن يطلق عليّ كنية (أبي حسنين).

ردّ سنان ضاحكًا:

- شكرًا للربّ الذي لم يرزقني بزيجتين، ولم يرزقني بولد من كل واحدة منهما يحمل اسم دانيال، لأسميتني (أبا دانيالين).

كثيرًا ما كانت ضحكاتهما تملأ الأرجاء، وكثيرًا ما كان سنان يبيت لياليه في بيت أبي حسنين، في جلسات تعلوها روائح دخان السجائر والشاي والقهوة.

في الأوضاع السياسية المستجدة والمخاطر المحيطة بالجميع، كان أفضل ما تعلمه سنان من أبي حسنين الفرق بين تنظيمي القاعدة وداعش، كانت داعش منظمة إرهابية وضعت نصب عينيها هدفاً رئيساً هو إقامة إمارة إسلامية في الشرق الأوسط

في مستقبل غير منظور، يطرح فكرة تنظيم الدولة الإسلامية هدفاً واضحاً هو الإقامة الفورية لدولة الخلافة، في حين أن القاعدة استهدفت دوماً تقويض ترتيبات القوة الراهنة (الدول الغربية، وبعض الدول العربية من دون طرح بدائل محددة).

أشاعت القاعدة فكرة تسميتها لداعش بالفكر الإرهابي المعتمد على الدماء، وصارت تحاول بناء أسس بديلة لدول بمسمى الإسلام، أما داعش فكان تنظيمًا مسلَّحًا يتبّع فكر جماعاتٍ سلفية، ويهدف أعضاؤه -حسب اعتقادهم- إلى إعادة (الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة) عرف سنان عن هذا التنظيم الإرهابي أكثر مما كان يعرف عنه سطحيًا إنه تنظيم مسلح إرهابي طائفي يعتمد القتل لإحداث خلخلة في النسيج المجتمعي والحكومات السياسية التي ينشط في بلدانها.

كانت تلك معرفة سطحية، لم تكن لتمر على حقائق عرفها على لسان أبي حسنين بحقائق تواجد أفراده وانتشار نفوذهم بشكل رئيسي في العراق وسوريا ومناطق دول أخرى مثل جنوب اليمن وليبيا وسيناء والصومال وشمال شرق نيجيريا وباكستان وموزمبيق والنيجر.

سأل سنان صديقه السيد يومًا:

- ولكن لِمَ كل هذا بربك؟

- إنها السياسة يا صديقي؟

- بل الدين، في تطرفه المقيت سيدنا.

لم ينزعج السيد من وجهة نظر سنان بطرس، أجاب بهدوء:

- ربما وجهة نظرك صائبة في مفصل ديني دون مفصل، لكن داعش لها استراتيجية متنوعة، تستند إلى براغماتية مقيتة، وإلى دمج ما هو عسكري بما هو إعلامي وسياسي واجتماعي، وهذا هو تمامًا ما منح تنظيم داعش اليد العليا فوق الجماعات الإسلامية الأخرى في سورية والعراق.

- ما تفضلت به خطير ومؤدلج، منح لهؤلاء القذرين صلاحية الخوض بدماء الأبرياء.

- نعم يا صديقي، لذلك تجد أن الحرب ضده ليست حرب ميليشيات ضد ميليشيات، بل هي حرب منظمة تحتاج الى الكثير من التنسيق والتحشيد المنظم، فالتنظيم يُحارب كل من يُخالف آراءَهُ وتفسيراته الشاذة من المدنيين والعسكريين ويصفهم بالرِّدة والشِّرك والنفاق ويستحل دماءهم،

والحال أن تنظيم الدولة الإسلامية هو مجموعة هجينة.

ردَّ سنان مؤيدًا:

- صدقت سيدنا، فهو عبارة عن شراذم قذرة مرتزقة جاؤونا من كل بقاع المعمورة.

- صحح السيد:

- لم أقصد ذلك يا سنان.

- أجاب سنان ممازحًا:

- لَعَد؟

ردّ السيد قائلًا:

- أنا أقصد خطوات التنظيم السياسية يا سنان ومن يقف وراءها، لقد صادر داعش الإيديولوجيا الإسلامية الراديكالية للقاعدة، وعمد في الوقت نفسه إلى تطبيق نموذج القيادة المركزي لحزب الله اللبناني، وبعض التكتيكات من بُنى الحوكمة المحلية لحركة طالبان الأفغانية.

قال سنان مستدركًا:

- ربما اتاحت تلك الاستراتيجية لداعش فرص البقاء والنمو اعتمادًا على مجموعة العوامل البراغماتية كما تفضلت، وبالتالي نشر الهيمنة والسيطرة على الأراضي وتطويرها كوسيلة لسَوْس السكان وجذب المقاتلين الأجانب ؛ واستخدام الإيديولوجيا والإعلام كأداة للسيطرة على الناس، وتجنيد المقاتلين، وجمع الأموال، وتطوير استراتيجية عسكرية مركزية.

- أحسنت يا سنان، تمتلك حصافة أغبطك عليها.

- شكرًا سيدنا، أنا اعتقد أن هؤلاء الأوباش الذين نراهم في الساحات وفي ميادين عملياتهم، لا يمتلكون غير قذارتهم وأشكالهم الجرباء، وأن ثمة (ريمونت كونترول) يحركهم خفية، لكن لا أصابع تُشير إلى مُخطط معين.

أجاب السيد مبتسمًا:

- ذلك ما ستكشفه لكَ الأيام.

من الأمور التي أوصلها السيد أبو حسنين لصديقه سنان بطرس، أمر تمويل داعش ماليًا، تفاجأ سنان إن عصابات داعش وبعد جنيها للكثير من الأموال عن طريق احتلال الأراضي والسيطرة على البنوك واحتياطيات النفط والغاز وفرض الضرائب على المدنيين والابتزاز والسرقة والاختطاف للحصول على المال والمساعدات التي تحصل عليها كمساعدات من خلال المنظمات غير الربحية وكذلك الدعم الأجنبي والمعدات التي تُوفر لمقاتليها بغية الحصول على رأس المال من خلال شبكات الاتصال الحديثة.

رصد سنان في الأيام التي افترق فيها عن أبي حسنين -بسبب إلتحاقه بواجباته القتالية- جرائم داعش للعام ٢٠١٣ فوجدها جرائم وحشية لا تصدر عن بشر أسوياء، البدء بخطة هدم الأسوار التي أعلن الزرقاوي في شهر آب نية البدء بها عام ٢٠١٣، جريمتي الهجومين على سجنين في بغداد هما (سجن التاجي) و(سجن بغداد المركزي) ونجاحهم في تهريب أكثر من ١٠٠٠ معتقل إرهابي بتنسيق مع بعض الخونة والمرتشين، استهداف مقر الأمن العام (الأسايش) في مدينة أربيل شمال العراق، بسيارات مفخخة وانتحاريين يرتدون الأحزمة الناسفة، ستة وعشرون انفجارًا مختلفًا للفترة من العاشر من يونيو وحتى السادس عشر منه، في مناطق مختلفة من الوطن.

كانت الصورة غائمة وضبابية في ذهنية سنان بطرس متي، لم يتحصّل معها ما يوصله إلى كُنهِ حقيقة الأوضاع برمتها منذ سقوط الصنم حتى العام ٢٠١٣ الذي قارب على الانتهاء، لم توصله نقاشاته مع د. سليم وحسن الحمود إلى شيء جديٍّ يملك علميته، لأنها نقاشات كثيرًا ما يختلط فيها الجد بالهزل، وتتشعب فيها

الأحاديث لتخوض في المسائل الأدبية والاجتماعية وتُختم بالسخرية والنكات، أما أحاديثه ومراسلاته الكثيرة مع السيد أبي حسنين فزادته حيرة، أحسّ معها بخبث كوامن نفسه البشرية أن السيد يحاول بذكاء تجميل جهة على حساب تقبيح جهة أخرى، لذلك فإنه ذهب ضحية قراءته لبعض الكتب والمصادر التي غاب عنه فيها أنها كُتبت بأقلام خبراء استراتيجيين تعود انتماءاتهم إلى دول مهيمنة متنفذة تملك من الريمونتات والبوصلات ما يمكنها من خلط أوراق العالم بأسره دون أن يشعر بها أحد.

هو أيضًا لم يستفد من استقراءاته من عامل (العقائدية) بسبب ديانته لذلك راح يميل دون انتباه منه إلى وسطية في البحث والتقصي وهو يخوض في متون الكتب والمصادر والدراسات.

توصل إلى ما يمكن عدّه يقينًا، من أنَّ الطائفية في العراق هي رأس الفتن كلها، فسقوط نظام البعث مثلًا، أسهم كثيرًا في ترسيخ فكرة أن طائفة السنة تبنت فكرة تعرضها لانتقام وحشي من قبل الطائفة الشيعية بسبب مكابدات ثلاثة عقود ونصف من السنين الصعبة التي غصّت بها السجون والزنزانات والمقابر الجماعية بالشيعة والكُرد، لذلك برز ظهور داعش من رحم تنظيم القاعدة في العراق بمسمى تنظيم (قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين).

اجتهد سنان بأحقية هذا التنظيم الذي كان عبارة عن شبكة مقاتلين سُنّة نشطت في العراق عقب الغزو الذي قادته الولايات المتحدة في ٢٠٠٣، وضمّ مقاتلين عراقيين وأجانب معارضين للاحتلال الأمريكي والحكومة العراقية ذات الأغلبية

الشيعية منذ ٢٠٠٤ لذلك جاء بروز داعش وانتشاره السريع في سوريا والعراق مبررًا ذلك إلى أسباب عدّة تتراوح بين الغزو الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ وسياسات «اجتثاث البعث» التي جلبها معه ؛ وبسبب تعدد الحكومات وبروز عوامل التهميش لجهة على حساب جهة ؛ وتسهيل الحكومات الإقليمية لبروز حركة التطرّف، لكن ما جعله يُشكل على هذا الفهم تمثل بحجم الهجمات التي شنتها القاعدة في العراق على شكل تفجيرات انتحارية غالبا ما كانت تستهدف قوات الأمن والمؤسسات الحكومية والمدنيين العراقيين العُزّل، لم يستطع الربط بين أحقية قيام قوة تحرير وجهاد، وبين القتل الممنهج والوحشي ؛ لذلك دوّن أول نقاطه الخلافية في مفكرة البحث والاستقصاء.

خاض في لُجة مرحلة تصاعد العنف الطائفي في العراق بين ٢٠٠٦ و٢٠٠٨، وتحديدا بعد تفجير أحد مراقد الأئمة في سامراء، (أحد أقدس الأماكن لدى الشيعة)، وكيف أن أصابع الاتهام كانت تشير إلى تلك القوى التي وُصفت بالتطرف والتشدد، فنتج عن ذلك موجة من ردّات فعل شيعية، كانت تعقبها ردات فعل مضادة من السنة، تلك النقطة دُونت في مفكرته كنقطة إشكال ثانية، بعدها قرأ سنان أن إعدام طاغية العراق وشقيقيه لأمه صبيحة عيد الأضحى بعد محاكمات مطولة في العام ٢٠٠٥ بتهم ارتكاب مجازر ضد الإنسانية، شكّل أكبر استفزاز للقبائل المتعاطفة معه خصوصًا في مسقط رأسه في (عوجة تكريت) وما أعقب ذلك من تأسيس لمجاميع مسلحة جُلهَا من جهاز الحرس الجمهوري وفدائيي صدام قابلها تعميق وترسيخ حكومي تسبب بانقسام البلاد إلى معسكرين متناحرين وصل إلى مرحلة الدم المحرم، لكنه سجل اعتراضًا على حرق جثة الطاغية من جهات سنية أخرى ولم يجد تفسيرًا

مقنعًا حتى بوجود خلافات قبلية بين عشيرة الطاغية وعشيرة أحد جنرالاته الكبار، مثلما سجل اعتراضًا خامسًا في مفكرته حول ممارسات الحكومة في تلك الفترة وعدم تمكنها على امتداد عقد من معالجة أيّ مظالم ضدّ الطائفة السُنية التي كانت تشتكي من مشاركتها الضئيلة في العمليّة السياسية، ومن عدم تنفيذ إصلاحات حقيقية لحملة «اجتثاث البعث» العقابية والفضفاضة ولقوانين مكافحة الإرهاب.

أدرك والريبة تملؤه أن تلك الأسباب التي تتداولها المواقع الإعلامية العالمية ربما كانت العامل الذي جعل شعور سُنّة العراق بالظلم يتفاقم مع تزايد سيطرة أحزاب الشيعة على السلطة المركزيّة، والتعامل المشدد للقوات الأمنية، وحملات الاعتقالات الجماعية، وتفاقم ظاهرة المحاكمات، والممارسات المسكوت عنها داخل السجون العراقية، يعطي تصورًا بإقصاء وتهميش ممارسٍ ضدهم، وهو ما ساعد على تطور قوة القاعدة حتى العام ٢٠٠٧ عندما تقلصت تلك القوة، بعد أن أنشأت العشائر السنية وبتمويل أمريكي ميليشيات مسلحة سُميت في حينها «مجالس الصحوة» التي رفعت شعار طرد القاعدة في العراق من أراضيهم.

ما أدار رأس سنان بطرس حقًا، ذلك التساؤل الذي عدّه نقطة إشكال سادسة دونها في مفكرته، إذ طرح تساؤلًا (إن كان حجم القاعدة قد تقلص على واقع ساحة الأحداث السنية بدعم أمريكي وصل الى قصف تلك المناطق وفتح المنافذ لعمليات تطهير عسكرية، فكيف استمرت القاعدة في نشاطها العلني، المدعوم إعلاميًا هناك؟! وكيف كان البعض من قادة هذا التنظيم يديرون عملياتهم وهم محتجزون في مراكز احتجاز تديرها الولايات المتحدة لا سيما في معسكر (بوكا) الشهير الذي ضمّ إليه أبرز وأهمّ القيادات الداعشية).

كانت الأسئلة تنزل على دماغه بوقعٍ يشبه وقع مطرقة الحديد:

من يقف مع من؟! من يقتل من؟! من يسند من؟

حين سحب الكثير من الوثائق والمدونات عرف أن تلك الأمور المختلِطَة انعشت حظوظ وفرص تواجد تنظيم القاعدة في العراق حتى العام ٢٠١١، لأنه استخدم النزاع السوري الذي اندلع ذلك العام كمجال للتدريب والتجنيد!

وجد سنان بطرس في الوثائق التي بين يديه أن ثمة مشكلة برزت في تلك السنة عند سُنّة العراق يوم حاولوا التظاهر سلميا ضدّ التهميش في ٢٠١٢-٢٠١٣، كان تعامل الحكومة معهم مختلفًا، ربما لأنهم لم يحسنوا التعبير في شعاراتهم المرفوعة، أو لأن الأمر اختلط على طرفي الخصام باندساس عناصر القاعدة في المظاهرات وتحريكها لخيوط اللعبة.

لهذا كان طبيعيًا له ملاحظة أنه في نيسان من العام ٢٠١٣ وجد أن زعيم القاعدة في العراق (أبا بكر البغدادي) كان قد أكد عن الحضور الجديد لتنظيمه في سوريا عبر تغيير اسمه إلى «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، ومنه اشتق إسم داعش اختصارًا، في تلك الفترة أفرز الواقع العراقي خيانات شخصية وجمعية كثيرة تسببت في الكثير من الإخفاقات الأمنية وفي شمولية الإجراءات الحكومية، فاستعادت القاعدة مكانتها في العراق، لتتخذ الحياة شكل خرابها الشامل.

العراق/ ٢٠١٤م/ دماءٌ ودُخان

حلّ العام ٢٠١٤م ثقيلًا، حزينًا على العراقيين بعد أن أحكم تنظيم داعش الإرهابي السيطرة على أراضٍ واسعة في سوريا أواخر العام ٢٠١٣، ومنها مآسي السيطرة على مدينة الرقّة، قبل أن يحكم سيطرتهُ على مدينة الفلوجة أوائل العام ٢٠١٤، ليفرض مع حلول فصل الصيف، سيناريو السيطرة على الموصل، كان خرابه شاملًا، مخيفًا، وهو يتوجه بالوجوه الكالحة واللحى العفنة والأشكال الرثّة، القذرة لجنده الأشرار، جنوبًا ليحكم سيطرته على أجزاء من محافظات صلاح الدين، كركوك، ديالى، الأنبار.

أحداث ووقائع، حوّلت العراق إلى دماءٍ ودُخان، جرائم داعش كانت وحشية للغاية، انتهكت فيها حرمة الدم والإنسانية، كانت تحركاتها لا تحمل مسمّى أكثر من مسمى (حرب الإبادة الشامل) كانت آلة قتلها تسحق الأبرياء بشكل جماعي، دون شفقة أو رحمة، أو خشية من وقار شيبة لرجل، أو حرمة حجاب امرأة أو جديلة طفلة بريئة أو ابتسامة صبي صغير يلهو بالكرة، أو حلم مذبوح لشابة تحلم بفارس الأحلام، أو فتى يتلمس فتوته المبكرة، لم ينجو الزرع ولا المواشي والأغنام

والطير والشجر، شنوا الكثير من الهجمات على قرى وبلدات في كافة أنحاء سنجار، مستهدفًا الأهالي البسطاء، الأبرياء من السكان الأيزيديين، قتلوا وذبحوا قرابة الألفين من العُزّل، قاموا بأسر ما يقرب عن الستة آلاف وأربعمائة وسبعة عشر مواطنًا ومواطنة هناك، أقاموا حدود دولتهم المخيفة على عجل، عمدوا إلى إنشاء سجن مخيف للنسوة الأيزيديات هناك، مارسوا دون تأنيب لضمير طقوسًا غريبة لم يقرّها شرع أو دين مارسوا من خلاله عمليات اغتصاب يندى لها جبين الإنسانية، كان الاعتداء والاسترقاق الجنسيين شعارًا لهم، أقاموا معسكرات للتعذيب البشريّ والممارسات اللاإنسانية لسجنائهم، أقاموا شريعة غير مسنونة للزواج القسريّ للفتيات الصغيرات من مرتزقة تنظيمهم المجرم، ثم أسسوا معسكرات العمل القسريّ الشاق بحق النساء الكبيرات والأطفال الأيزيديين.

وجد الأيزيديون أنفسهم مجبرين على تغيير ديانتهم، بين يدي أمراء التنظيم الأسوأ وحشية من أسلافهم، وهم أمر خطير لم تُقرّه قوانين الأسر عبر العصور، حيث سمح هذا القانون بتجنيد الأطفال الأيزيديين وإعدادهم للقيام بالأعمال الإرهابية، ومنها الأحزمة الناسفة والمفخخات، بمسمى التوبة والشهادة، دون أن يمنعوا مرتزقتهم من التحرش اللا أخلاقي بهؤلاء الأطفال.

كانت النية الداعشية مبيتة مسبقًا لتدمير هؤلاء السكان ومحوهم من الوجود لأسباب عرقية، قومية، طائفية.

صُبغ العام ٢٠١٤ بالدم والسواد، فشملت خارطة القتل الكثير من الأقليات الأخرى مثل (الشيعة الشبك) و(الشيعة التركمان) و(المسيحيين)، خصوصًا

مسيحيي الموصل، قبل أن يُخيّر ما تبقى من المسيحيين بالمثول إلى واحد من ثلاثة أوامر، (اعتناق الإسلام بالإكراه، دفع الجزية، الهجرة مع ترك كل الأموال والمنازل، دون ضمان لحماية من موت عند مواجهة حدّ السيف وقت الهروب الطويل).

لم يرتوِ هذا التنظيم الإرهابي من دماء الأبرياء، ليرتكب مجزرة أخرى مارس فيها أقسى أنواع القتل الجماعيّ ضد مئات (الشيعة والأكراد والأيزيديين) المحكومين في سجن (بادوش) قرب الموصل، بعد أن ارتكب قبل ذلك أقبح جريمة بحق ألف وسبعمائةٍ من الجنود الملتحقين توّاً لخدمة العلم داخل قاعدة (سبايكر) العسكرية قرب تكريت، وحرق عدد مقارب من الجُند الشيعة خلف مصافي بيجي، بمساعدة من خونة برتب عسكرية كبيرة وبعض من الشيوخ القبليين !!

ارتكب الداعشيون جرائم كبرى، يندى لها جبين البشرية في أغلب مساحات العراق، في تصاعد دموي اشتدت ذروته من العام ٢٠١١، نشر فيها داعش ضباعه وخنازيره القذرة.

كانت أقبح صفحاتهم تجنيدهم لأطفال وشبان صغار السن لتنفيذ مئات العمليات الانتحارية والتفجيرات بالسيارات المفخخة، تفجيرات وحشية تسببت بإزهاق أرواح آلاف المدنيين، أما في المناطق التي احتلها داعش بقوة السلاح وتسهيلات الخونة فلقد عمدوا إلى أسلوب سوء المعاملة، بما في ذلك العنف الجنسي والإعدامات العلنية ووحشية طرائق القتل، والسادية في أساليب التعذيب كوسيلة لترهيب الآخرين، قبل أن يؤسسوا ديوانًا أسموه (ديوان الحسبة) كان بمثابة جهاز شرطة الآداب، فمارس هذا الديوان المجرم قيودا وعقوبات على المناطق التي وقعت

تحت سيطرته، وصار يقوم بعمليات إعدام علنية ومنها الرجم بالحجارة، شملت تهمًا مهينة كاللواط والزنا، ثم قاموا بمنع وتحريم استخدام الهواتف الخلوية والتدخين، وصاروا يفرضون قيودًا مشدّدة على لباس الفتيات وحريّة الحركة في المناطق الخاضعة لسيطرته.

كانت النسوة لا يخرجن إلا وهنّ يرتدين النقاب وبصحبة رجل محرم، ومع ذلك كُنّ يتعرضنَ للضرب والإهانة وفرض الغرامات على من يصحبهنّ من الرجال، قوانين صارمة، ظالمة تسببت بعزل النساء عن أسرهنّ وجيرانهنّ وعن الحياة العامة، وهو ما سهّل اختطاف أو أسر أو امتهان الكثير منهنَّ.

استمرّ الداعشيون في غيّهم وظلمهم للمواطنين العُزّل، فرضوا الضرائب الباهظة على المواطنين، الخاضعين لحكمهم وسيطرتهم، صادروا ممتلكات الفارّين، شنوا الكثير من الهجمات المباغتة على البنوك والمصارف، أفرغوها تمامًا من الأموال والذهب والودائع الثمينة.

ثم جاءت صفحتهم الأخسّ بهدمهم للمساجد والأضرحة والكنائس، حطموا التماثيل التي تحمل عبق التاريخ الموغل بالحضارات، لم يردعهم الضمير وهم يقوموا بهدم ونبش مقابر الموتى من الديانات كافة، ثم ساووا بالأرض كل المواقع الدينية والأثرية، ونهبوا الكثير من الوثائق والأعمال الفنية -الثقافية القيّمة التي وجدوا أنها تُباع بمبالغ طائلة، بغية تمويل عملياتهم الإجرامية.

كانت خطورتهم توازي قذارتهم تمامًا، استخدموا الأسلحة الكيمياوية المحرمة ضد القوات الحكومية التي كانت تعد العدة لاكتساحهم، كانوا يختبؤون بين

صفوف العُزّل في المشافي المحمية دوليًا كلما جدّت الأساليب لمواجهتهم، استخدموا أساليب قذرة مثل اتخاذهم المدنيين دروعًا بشرية ضمن حسابات الخسائر اثناء القيام بعملياتهم الإجرامية، استهدفوا المدنيين كافة بالرصاص القنّاص، على مجاميع الناس التي كانت تهرب بسبب الخوف والجوع والامتهان، مثلما كانوا يقومون بمجازر واعدامات جماعية بحق المدنيين الأبرياء الواقعين تحت سطوتهم وسيطرتهم اثناء تراجعهم القتالي بسبب ضغط الجيش والشرطة والفصائل المسلحة المقاومة، تاركين خلفهم بشاعة مجازرهم ومقابرهم الجماعية.

النجف الأشرف/ فتوى الجهاد

١٣ حزيران ٢٠١٤م

لم يكن يوم الجمعة الموافق للثالث عشر من حزيران من العام ٢٠١٤ يومًا عاديًا في حياة العراقيين بعد أن حركت حوزتهم العلمية الراكد من الأحداث، فأصدرت بعد السيطرة المقلقة لتنظيم داعش الإرهابي على جزء كبير من المنطقة الغربية في العراق وقيامه بأعمال قتل ودمار واسعة، الفتوى التاريخية الخاصة بالجهاد الكفائي، بعد دراسة مستفيضة عن طريق الثقات واجتماعات رفيعة المستوى أسهمت في تكوين تصور واضح لدى المرجع الأعلى.

كان لوقع بيان نص الفتوى عبر خطبة الجمعة إثرٌ كبيرٌ في نفوس المصلين والمواطنين، حين جلجل صوت الحقّ في أرجاء الحرم الحسيني بنص الفتوى:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين وصحبه الميامين، وبعد.

إن طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه، وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب

الكفائي، ومن هنا فإن على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية لتحقيق هذا الغرض المقدس).

كانت تلك الفتوى الشرارة التي انطلقت بتوجيهاتها جموع الآلاف من المتطوعين لمحاربة ذلك التنظيم الإرهابي وسحقه والقضاء عليه وإنهاء نشاطه الدموي المنهج بعد أن أعطى سماحة المرجع الأعلى قواعده الشعبية غطاءً شرعيًا ودعمًا معنويًا لقوات الحشد والفصائل المنطوية تحت ألويته.

هي فتوى مدروسة بعناية أفتت بوجوب الجهاد الكفائي، دعت في متن نصها الجهادي كلَّ مَنْ يستطيع حمل السلاح بالمشاركة في القتال في ضمن الأجهزة الأمنية الحكومية.

فتوى استجابت لها الجماهير الصابرة سريعًا فشكلت زخمًا معنويًا غذّى فصائل المقاومة والحكومة العراقية لاستدامة المعركة وديمومتها وقوتها، وأسهم بتغيّر ميزان القوى، وجعلت للحشد الشعبي غطاءً شرعياً، أنقذ الوطن من السقوط والانهيار رفقة فصائل المقاومة التي حفظت كرامة الفتوى وأنجحتها.

كانت لعنة تنظيم داعش الذي خرجت جرذانه من مخابئها إلى العلن داخل العراق وسيطرت على مدينة الموصل ومناطق أخرى في سنة٢٠١٤ .

اشتعلت معركة الموصل بداية بين قوات الجيش العراقي من جهة وبين تنظيم (داعش) والعشائر وجيش رجال الطريقة النقشبندية، فرضت العشائر سيطرتها على الجانب الأيمن من مدينة الموصل في التاسع من حزيران من العام ٢٠١٤، لاستعادة ما كان يسميه تنظيم (داعش) بـ«الخلافة الإسلامية»، وجد الدواعش تعاطفًا من

بعض رموز الخيانات الذين برروا هذا التعاطف بسبب الطائفية والتهميش والمادة ٤ إرهاب واستمرار عمليات الاعتقالات العشوائية-كما كان يحلو لهم تسميته-، أما رأي الحكماء من قلة قليلة من شيوخ القبائل فجاءت تفسيراتهم، أن ساحات الاعتصامات السلمية تم استغلالها من قبل تنظيم داعش والمجموعات الخارجة عن السلطة العراقية ممن انحرفت عن المسار الصحيح.

كان التبرير الرسمي لضياع الموصل، أن ما حصل فيها وفي المحافظات الأخرى جاء نتيجة خيانات أدت إلى انسحاب الجيش العراقي وانكسار بعض قطعاته من تلك المناطق ودخول تنظيم (داعش) من سورية، ساعدهم في ذلك دواعش الداخل وعناصر التنظيم من العراقيين، وخيانات بعض السياسيين في الدولة العراقية، تبريرات لم تجد تعاطفًا من الشعب ولا من حوزته.

كان الفساد وسوء الإدارة سببا لحصول تلك الكوارث، خيانات أدت إلى اضطهاد وقتل وتهجير ومصادرة ممتلكات واستعباد النساء واستباحتهن من أقليات تلك المحافظات من (تركمان شيعة) و(الشبك الشيعة) و (شيعة العرب) (والأيزيديين) و(المسيحيين) والخيانات التي طالت (الجنود الأكراد) و(البيشمركة الكردية) في بعض المناطق المتاخمة لوجود الأكراد العراقيين.

ايضًا خيانات أدت الى (تدمير ممتلكات وجوامع وحسينيات ومراقد للأنبياء والأولياء) في تلك المناطق، و(قتل المعارضين لنهج التنظيم من السكان المحليين)، و(اقتياد وقتل طلاب من القوة الجوية العراقية في قاعدة سبايكر في صلاح الدين) تلك المذبحة التي تركت ندوبًا لا شفاء لها في قلوب العراقيين سيما (أهل الجنوب) و(الفرات الأوسط).

الجميع يتذكرون ذلك الذبّاح الذي سُميت معركة الموصل باسمه (غزوة البيلاوي) وهو القائد المخطط لتلك المعركة وذلك الدمار، وهو ضابط صدامي ينحدر من عشيرة البوبالي إحدى قبائل الدليم، كان وحشًا بلا قلب، رفعت الخيانات العسكرية والقبلية من أسهمه لعد أن استولت داعش احت قيادته على عدد مهول من عربات الهمر العسكرية المصفحة، والأسلحة الخفيفة والعتاد فور دخولها الموصل المنكوبة.

عاش الموصليون يوم العاشر من حزيران ذكرًى مؤلمة تمثلت بسقوط مدينتهم، حين تمكن الداعشيون من السيطرة على مدينة الموصل، منشآت حيوية في المدينة، (مبنى محافظة نينوى) (المطار)، (قنوات تلفزيونية)، قيامهم بجريمة إطلاق سراح ألف سجين إرهابي من (السجن المركزي).

جنود فارون يشكون من خيانات قياداتهم العسكرية، قادة بلا شرف عسكري ولا كفاءة أومهنية، قادة كان من أفضل منجزاتهم أن هربوا تاركين جنودهم يعانون نقص المؤونة والعتاد.

لم يجد السكان المحليون في الموصل من وسيلة للنجاة غير التعاطف مع القوات المهاجمة، في ظل سوء منظومة التنسيق والتوصل والترابط بين القيادة العسكرية الماسكة للأرض وجنودهم.

في اليوم الحادي عشر من حزيران، اختطف الداعشيون ثمانية وأربعين موظفًا بينهم القنصل التركي، بلد يحترق فلا يكترث له أحد، وقنصلٌ يُختطف فيعقد حلف شمالي الأطلسي اجتماعًا طارئًا، لمجرد أن تركيا عضوًا فيه، كان الحدث كفيلًا بتأزم

الأمور، ثم ما لبثت المقررات إلا أن تسهم بإطلاق سراح إحدى وثلاثين شخصًا.

ما كان لهذا التنظيم الجرذي أن يغدو من أغنى التنظيمات العالمية لولا تلك الخيانات السياسية والعسكرية التي ساعدته في السيطرة على مقدرات البنك المركزي العراقي في الموصل، وعلى أعداد هائلة من المعدات العسكرية التي غنمها داعش بلا مقاومة، مدافع، دبابات، مدرعات، منصات قتالية، طائرات، صواريخ.

في أوائل كانون الثاني من العام ٢٠١٤ تمكن الداعشيون من السيطرة على الفلوجة والرمادي والعديد من مناطق الأنبار ساعدتهم في ذلك الخيانات القبلية ودواعش الداخل الذين كان من أبرز قياداتهم القيادي الطاغية (عبد المنعم الأنباري المُكنى بأبي عبد الله).

عبد المنعم الذي احترف القتل على أبشع ما يكون، وارتكب فضائع التدمير والخطف وحرق الأحياء والإتجار بالأعضاء البشرية واستخدام الأسلحة الكيماوية وغيرها من النشاطات الإرهابية، حتى أضحى هو والباقون من المجاميع الداعشية كوابيس متصلة في حياة الأبرياء والبسطاء من الناس.

في تلك الفترة جاء أبو عبد الله الى البيوت التي تحيط ببيت الأرملة الشابة (سعاد البكري) أخرج الرجال ومن ضمنهم نسيبها وأبناء عمومته وأولادهم وأجبرهم على المبايعة ركوعًا، ثم ساق قسمًا لهم ليكونوا مخبرين على كل من يعارض التواجد الداعشي لكي يقتل بلا محاكمة وتهجر أسرته وتسبى منهم الشابات من النساء.

أيام ظلام لم ينجو منها أحد، حتى سعاد المندل التي أوقفها الداعشيون بلا حجاب رأس أمام نسيبها ورهط من رجاله، الذي وهبها أمةً هي وثلاث بنات بواكر

للأمير -عبد المنعم أبي عبد الله- ورجال تنظيمه، وقد ملأنَ الفضاء المعتم بصريخ الاستغاثة، قبل أن يجبرهم على الجلاء وترك سياراتهم ومواشيهم وأسلحتهم، وقد خيّرهم بين الهجرة أو الانضمام الى معسكرات التدريب الخاصة بالتنظيم.

أمر جمع من الدواعش بأسر الشابات الثلاث، وتسليمهن الى معسكرات (الإماء المجاهدات) ثم خمش حجابًا من شعر إحدى الأسيرات الثلاث البواكر، ورمى به على رأس سعاد مندل، هاتفًا بها:

- احتشمي يا ولِّي.

أمسكت الحجاب بعصبية ظاهرة، كوّرته بكفها، ألقت به إلى الأرض، ثم بصقت على جنبها الأيسر، قائلة:

- ما اتخسَه على شاربك ولحيتك إذا تستر علي بالغصب.

ران صمت مخيف على الجميع، صوب بندقيته تجاهها، لم تهتز لها شعرة، أطلق رشقة سريعة إلى السماء وهتف بجنده: انسحاب.

حين انسحبوا وقد أخلوا المكان من أسراهم، على أمل العودة السريعة لأخذ غنائم البيوت الفارغة، إنحنى على الشال فالتقطه من الأرض، ثم اعتصره بقبضته الكبيرة موجهًا لطمة قوية إلى سعاد مندل التي سقطت من شدة الضربة ولم يمنع نفسه من سحلها الى حيث بيتها ليكتب منذ تلك الليلة ملاحم استباحتها دون عقد شرعي.

تحت الضغط القتالي الذي سلطته القوات العراقية المسلحة على الدواعش

وأذنابهم من متمردي الداخل المنحدرين من قبائل الخيانة، اضطروا إلى شغل تلك القوات ومن يتجحفل معها بمعارك أخرى لا تقل ضراوة عن المعارك السابقة، فكانت معركة تكريت الأولى هي امتدادًا لمعارك الموصل عام ٢٠١٤، وكان الهدف من وقوعها للسيطرة على مدينة تكريت العراقية بعد استيلاء التنظيم والمقاتلين الموالين للبعثيين على المدينة خلال هجوم شمال العراق عام ٢٠١٤.

دارت رحى المعركة بين السادس والعشرين وحتى الثلاثين منه للعام نفسه.

في أوائل يونيو ٢٠١٤ سيطر الدواعش على عدد من المدن في شمال العراق بما في ذلك تكريت التي كانت مركزًا إداريًا لمحافظة صلاح الدين.

كانت المعارك بشعة النتائج على مقدرات الناس، تغيّر إيقاع الحياة إلى كل ما هو أسوأ.

لم تقف القوات العسكرية والفصائل المسلحة مكتوفة الأيدي بل شنت هجومين جوي في السادس والعشرين من الشهر نفسه وبري في الثامن والعشرين منه لاستعادة المدينة، لكن خيانات الداخل كالعادة عززت الموقف لصالح الداعشيين والموالين لهم، الأمر الذي أعلنوا فيه عن قيام دولة خلافة إسلامية هناك.

لم تسترد تكريت من داعش التي حفرت على جبين البشرية جريمتها الجديدة بمهاجمة معسكر سبايكر ضد جنود عُزّل في مرحلة التدريب في السابع عشر من شهر يوليو، ظلت تكريت تحت سيطرة داعش حتى معركة تكريت الثانية طيلة شهري مارس وأبريل من العام ٢٠١٥ .

تنظيم إرهابي يشبه في مساراته مسارات الآفات العملاقة في بطون كتب الأساطير، مقاتلون بلا أخلاق فرسان وبلا رحمة وهم يتركون قبح سلوكياتهم القتالية في مجزرة سنجار ضد الأقلية الأيزيدية في العراق في محافظة نينوى في مدينة سنجار وضواحيها.

خمسة آلاف مواطن مسالم لا يفقه من الحياة غير البساطة ذهبوا ضحية لتلك المجزرة التي هزت كيان العراقيين ووصمت حياتهم بالحزن والقلق وشحنت قلوبهم بالحقد والغضب، لم يكتفِ الداعشيون من ذلك البطش في تلك المجزرة الرهيبة بل قاموا بسبي الفتيات (الأيزيديات) وأخذهن كجوارٍ، استبيحت عذريتهنّ اغتصابًا، ثم تمّ بيعهنّ في أسواق (الموصل) و(الرقة) والمناطق الأخرى التي كان يسيطر عليها هولاء الخنازير.

كانت قوات (البشمركة الكردية) قد انسحبت من هذه المدينة وضواحيها بشكل غير متوقع، ليتركوا ذلك الشعب المسكين عرضة لمجزرة بشعة، أدخلت الطمع على أنفس الداعشيين لتوسيع صراعاتهم داخل كردستان العراق.

هُجّر الناجين من سكان المدينة إلى جبل (سنجار) بلا حول أو قوة، لم يجدوا من وسيلة غير الاحتماء بهذا الجبل لأسابيع عدة، إصابات، أمراض، شيخوخة، معاناة وعذاب، تسببا بموت الكثير منهم، قبل أن يتم إنقاذ الآخرين بدعم دولي وترحيلهم إلى مناطق أكثر أمانٍ.

كانت نوايا التنظيم ظاهرة للعيان وهو لا يكتفي بقتل الناس بل يعمد إلى إحداث تغييرات ديموغرافية في المنطقة التي يحتلها والتي تمثلت بمحو الهويات

القومية والوطنية للأيزيديين والكرد والمسيحيين وجلب الكثير من العرب المطيعين من بطون الجزيرة وبلاد الشام.

كانت جذوة الشر تتقد بشكل مخيف داخل كيان ذلك التنظيم الإرهابي فتغلغل هذه المرة في بيجي إحدى مدن محافظة صلاح الدين حيث مواقع النفط وحقوله، وجرت هناك معركة بين التنظيم وجهازي مكافحة الإرهاب والرد السريع وبعض تشكيلات الجيش ورجال الحشد الشعبي. وطبيعة المعارك السابقة كان الخذلان يأتي من خونة الداخل من جنرالات وشيوخ عشائر لا ضمائر لهم ولا حس وطني فاستمرت هذه المعارك حتى نهاية أكتوبر من العام ٢٠١٤ حيث استعاد داعش وموالوه السيطرة على بيجي ومحاصرة مصفاة النفط فيها.

في تلك المدينة أيضًا ارتكب الداعشيون جرائم إبادة بشعة بحق العسكريين وحرق الأعم منهم بمادة البنزين في ظل تعتيم اعلامي غطت عليه جريمة سبايكر العصر.

تقصد الداعشيون خلط أوراق الأزمنة والتواريخ، اعتمادًا منهم على المتعاطفين والمتعاونين معهم من أهالي تلك المدن التي كان بعضها يسقط بلا عناء، تاركين من يدافعون عنهم يواجهون الموت غدرًا أكثر مما يواجهونه في اقتتال معارك تقليدية.

فمدينة تلعفر ذات الأقليات العربية والوطنية، شهدت معركة ضارية فجر يوم الأحد الخامس عشر من حزيران عام ٢٠١٤ بين قوات داعش والقوات العراقية.

كانت قوات داعش قد دخلت مدينة تلعفر بداية عن طريق حي يدعى (حي السلام) ثم سرعان ما تدفق مقاتلوها إلى باقي الأحياء عن طريق سيارات محملة بالمقاتلين والأسلحة.

في تلك المعركة شارك الطيران العسكري العراقي بالقصف، من أجل تصفية قرابة الألفي داعشي من المدججين بالسلاح والأسلحة المتطورة، قبالة أربعة آلاف مقاتل عراقي تحيط بهم الخيانات من الجهات كلها، وكطبيعة تلك المدن سقطت تلعفر بالخيانات أكثر منها سقوطًا بقتال عسكري تقليدي، لتصبح المدينة على فرار اعداد كثيرة من المدنيين، في الوقت الذي أسقطت فيه القوات العراقية الكثير من مقاتلي داعش وأوردتهم نيران الدنيا والآخرة.

كانت خطوة الحكومة العراقية موفقة حين شكلت «جيشا رديفا» عُرف بالحشد الشعبي، ليكتب السيد المرجع الأعلى كلمات من نور حفزت الشباب للانتماء إلى القوات المسلحة ودعمها بالحشد الشعبي لدحر الإرهاب المتمثل بإخطبوط الخراب (داعش).

سفّه الإعلام المضاد تماشيًا مع فكرة تدمير العراق مسألة التأثير على الرأي العام فحول قيام تشكيل مسلح نظامي يكون رديفًا وسندًا للجيش الحكومي الذي أرهقته الحرب المعقدة والمتشعبة والممتدة، واتعبته بعض الخيانات العسكرية والقبلية من (دواعش الداخل)، كان تأخر الإجراءات

أو القرارات الرادعة لمجلس الأمن هو من شجع على ذلك بشكل جدي.

لذلك تجسدت الحكمة من اصدار تلك الفتوى بترسيخ بعض المفاهيم التي تشرح أبعادها ودلالاتها، فعرّفت العالم أجمع أن المُراد من تلك الفتوى يتمثل بكل موقف شرعي تجاه القضايا المختلفة، أما الواجب الكفائي فهو قسم من أقسام الواجبات الدينية المطلوب فيه القيام بالفعل من أي مكلف كان.

بعد أن أصبحت الفتوى واقعًا معاشًا، وغاية قصوى لاستعادة الأرض والشرف والكرامة، تمّ ربط اللواء الثاني واللواء الحادي عشر والسادس والعشرون والرابع والأربعين إداريًا وعملياتيًا بالقائد العام للقوات المسلحة، وحملت هذه الألوية أسماء «لواء أنصار المرجعية» و«فرقة العباس القتالية» و«فرقة الإمام علي القتالية» و«لواء علي الأكبر»، وهي ألوية شكلتها العتبات الدينية في النجف الأشرف، بعد صدور فتوى الجهاد الكفائي.

في الأنبار، كتبت سعاد مندل نهاية حميدة لحياتها، بعد أن أهان عبد المنعم كرامتها حين عمد إلى استباحتها على يد رجلين من الشيشان لأكثر من أسبوع قبل أن يرسلها لمعسكر المختطفات والأسيرات ويمعن في إذلالها، أوكل إليها عبد المنعم مهمة التسوق لأسيرات المعسكر، فنجحت في شراء كمية من المواد السامة واتفقت مع البعض منهن على وضع السم في قدور الطعام الخاص بسرية الحراسة، ثم كتبت لعبد المنعم رسالة تعاتبه فيها على ما فعل بها، وإنها تتوق للعيش بين يديه وإن بصفة خادمة لأنها لم تحب رجلًا غيره، في اليوم الذي أعادها فيه إلى بيتها، اتفقت مع الأسيرات على الشروع بالخطة في اليوم الثاني لمغادرتها المعسكر، حتى تتفرغ هي لقتل عبد المنعم.

في يوم مقتله جعلت منه شهريارًا، منحته سعادة واستقرارًا، وحين طابت نفسه واطمأنت وضعت له السمّ في العصائر والأكل، وقبل أن يسري السم في جسده، تلقى اتصالًا من حرس المعسكر يمنعه من عدم أكل أو شرب شيء من يد أسيرته، حين استفسر، أخبروه أنهم اكتشفوا محاولة لسم الجند جميعًا كل واحد على يد أسيرة، وإنهم قرروا اعدامهنّ جميعًا بعد اعترافهنّ أن المخطط يعود لأمتك وأسيرتك سعاد مندل، قال والغضب يأكل روحه:

- نفذوا الإعدام فورًا بالجميع، ولا تدعوا أحدًا ينجو من العقاب، حتى الأطفال الرُضع، لحظتها كانت سعاد في المطبخ تتخلص من بقايا الشراب والطعام المسموم، حين سمعت الحوار الغاضب لعبد المنعم الذي سحب أقسام رشاشته وأطلق صيحة اهتزت لها الجدران:

- سعاد.

بخّت وجهها بالماء وهي تنطق الشهادتين بانفعال كبير، أمسكت سكينًا للدفاع عن نفسها، التفتت إلى الباب، تحركت باتجاهه في محاولة لغلقه، ركل عبد المنعم الباب بقوة، ارتدّ الباب على وجهها فأسقطها أرضًا، سألها بعصبية كبيرة:

- هل سيقتنِي سمّـــــًا؟

قالت:

- نعم.

شعر باختناق وألم شديد يمزق أمعائه، سألها مجددًا:

- وهل أنتِ من خطط للأسيرات فكرة سقي السمّ أو دسّه في شراب وطعام جند الخلافة؟

ردت:

- أجل.

- لِمَ؟

- هكذا، أخبرتك لن أكون لك، وحين استبحتني للأجانب قررتُ موتك.

لم ينتظر منها شيئًا آخر ولم يصرّح لها بشيء، أفرغ مخزن الرصاص في أنحاء جسدها كله، ثم استند على ركبته وفوهة بندقيته، ورفع إصبعهُ موحدًا مناديًا:

- باقية، باقية وممتدة.

ثم سرعان ما تقيء دمًا أسودًا، ليتكوم بالقرب من قدميها جثة هامدة.

الجمعة ١٣ حزيران ٢٠١٤م

شقة سنان بطرس متي...

لم ينسّ سنان بطرس ذلك المساء اللاهب داخل شقته، من يوم الجمعة الموافق للثالث عشر من حزيران للعام ٢٠١٤، يوم اشتعل العراق بحماسة أبنائه، وتوجهت المركبات على مختلف أحجامها وأشكالها نصرة للعراق إثر صدور الفتوى، لحظة تلقيه مكالمة من السيد أبي حسنين، وهو يتحدث إليه بصوت خنقته العبرة ووشحه الانفعال لردة الفعل السريعة والخاطفة للعراقيين بمختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم، يومها لم يكن ابن بطرس على اطلاع كامل بتلك الفتوى التي انشغل عن تفاصيلها وردّات الفعل الصادرة من الناس بعد إعلانها، لانشغاله بكتابة فصول روايته الأولى، ومن ثم استغراقه بنوم ثقيل حتى وقت تلقيه مكالمة السيد الهاتفية المشحونة بالانفعال والعواطف.

أمضى وقتًا طويلًا من الاستماع للمكالمة دون أن تصدر عنه ردة فعل مناسبة تتسق مع عظمة الحدث، تنبه أبو حسنين للبرود الذي كان على سنان بطرس، سأله بشكل مفاجئ:

- ما بك سنان؟ هل تشكو من عارض صحي؟

- أجاب سنان معتذرًا: لا، لا، أبدًا سيدنا، مبيّه شي، بس آني كنت نايم، وما ادري شنو الموضوع.

ضحك السيد قائلًا:

- لك يا نوم، يا بطيخ، بابا حتى اللي ابّطن أمه هم فزع شايل بندقية وتوجه لمقاتلة داعش.

رد سنان ببرود:

صحيح؟ بشرفك؟ يعني لصتوها عليهم؟

- استأذن السيد أبو حسنين من سنان، مودعًا، ووعده بزيارة قريبة لتهيئته للمرحلة القادمة.

أما سنان فلقد أمضى ليلته بمتابعة الأخبار السياسية التي تتحدث عن فتوى الجهاد الكفائي، وردود الأفعال حولها، متيقنًا بنهاية وشيكة لذلك التنظيم القذر.

الكرادة/ مقهى رازونة/ ١٤ حزيران ٢٠١٤م

السبت الذي قلبَ كياني

لم يكن يوم السبت الموافق للرابع عشر من حزيران من العام ٢٠١٤ باليوم الاعتيادي في حياتي، بعد أن تلقيت اتصالًا مبكرًا من السيد أبي حسنين (في الصبيحة التي أعقبت يوم فتوى الجهاد الكفائي) يدعونني فيه إلى لقاء هام في مكان هادئ، فاخترت له مقهى (رازونة) وسط الكرادة، القريب من مقراتهم، وبالفعل تمّ اللقاء بيننا في المقهى شبه الخالي كون الوقت لم يتجاوز العاشرة صباحًا.

بدا لي وجه أبي حسنين مشرقًا، متوردًا بحيوية رائعة -على الرغم من ملامحه السمراء- والقليل من علامات الإجهاد لقلة ساعات النوم لكل الذين على شاكلته، بسبب كثرة المهام والواجبات.

رحب كل منا بالآخر، وتداولنا بعض الأسئلة حول الصحة والأوضاع الخاصة لكلينا، وجدته مستبشرًا، فرحًا، بالفتوى التي صدرت عن قلب النجف النابض، فاتبعتها أرواح الناس، كما لو كانت بصيص أمل لحياة جديدة دون داعش وجرائمها البشعة، وجدتني أشاركه الفرحة وأنا أجده يبسط لي آفاقًا يمكن لها فتح

مغاليق الكابوس الجاثم على أرواحنا وأنفسنا حتى القنوط، وجدته يحتسي فنجان قهوته على عجل، ويكرر النظر إلى ساعته مستطلعًا الوقت، أو يرد باقتضاب على المكالمات التي يستلمها تتاليًا، فجأة سحب كُمّ قميصه الصحراوي كما لو كان يغطي ساعته اليدوية، ثم يغلق هاتفه، مركزًا عينيه السوداوين في خضار عينيّ ليسألني دون تردد:

أما زلت مصرًا على إتمام روايتك؟

أجبته:

- نعم، وبقوة سيدنا.

قال:

- هل تعلم إن أخطر فصولها عندي.

أجبته ضاحكًا:

- أتريد أن نقوم بكتابة رواية مشتركة.

ابتسم بدفء وأمسك بكفي وراح يضغطها بدفء:

- كلا أخي العزيز، بل أريدك أن تقاسمني الحياة.

سألته مستغربًا:

- لم أفهم.

قال بحزم:

- أريدك أن تكون حشديًا.

اربكتني طريقته الجادة في طرحه للسؤال. -أجبته-

- وكيف ذاك؟! أنا لا أحب تكرار تجربة العسكرية.

قال:

- لن تكون مقاتلًا بالسلاح.

- فَبِمَ إذًا؟ -سألته-

ردّ بالجدية نفسها:

- ستكون مقاتلًا بالقلم.

ابتسمت ببلاهة، وارتعدت فرائصي لخطورة وجدية الفكرة، أجابني قبل أن أسأله:

ستكون معي، في اللواء الذي أقود سرية من سراياه، سترافقني في الكثير من الرحلات والاستطلاعات بين الألوية والقطعات، لعلك لا تعلم أن العدّة قد عُدّت لتأسيس أربعة ألوية حشدية، منبثقة من سادات ومشايخ وحكماء ولجان الحوزة، وإن الفتوى لم تشمل فئة دون أخرى أو دينًا دون دين، أو طائفة دون طائفة أو قومية دون قومية.

قلت مترددًا:

- صعب سيدنا.

- ليس الأدب كتابة فقط يا سنان، هو موقف وسلوك أيضًا، سأترك لك الحق في تقصي الحقائق بعين المحايد، ولن اتدخل في طبيعة عملك، إلا في ما يخص أمور التوجيه، ابتدئ بمهام المراسل الحربي، وانتهي لمرحلة التوثيق عن كثب فإن قُتلت، متّ شهيدًا.

وجدتني ألجأ إلى المرح تخفيفًا لوطأة السؤال، قلتُ ممازحًا:

- وهل سأدخل الجنة.

أجابني كمن ضمن موافقتي:

- أجل يا سنان، ستكون شهيدًا محتسبًا، في حضرة الأنبياء والصديقين والشهداء.

قلت بالمرح نفسه:

- وهل سأرى نبيكم؟

أجاب:

- أجل ستراه، وسترتوي من ماء الكوثر بيده الشريفة.

قلت ضاحكًا:

- يمعوّد سيدنا، عيب من عيسى الربّ.

قال السيد ضاحكًا:

- وربك ستجده يقف بمحبة جنب أخيه نبينا الأكرم، فكلاهما نبي.

أجبته بمرح:

- شيعي مو بيدك.

قال بمحبة:

- ستكون تجربة عظيمة، جرّب أن تعيشها.

قلت بشيء من التردد:

- أمهلني يومين أو ثلاث لأفكر.

- حسنٌ لك هذا، واثق من أرشفتك الرائعة للحقائق.

أخرج لي فايلًا اسود اللون من النايلون الشفّاف وقال:

- إبدأ من هنا، لتكن بدايتك مني، هذه مقدمة كتاب مذكراتي، علّها تنفعك بشيء.

شكرتهُ، وحين انصرف، وجدتني بعد ليلة مضنية، معه، كتفًا إلى كتف، متوجهين إلى سواتر القتال، حيث الحقائق على أصولها، متضايقًا من بدلتي القتالية التي اتسع مقاسها على جسدي بدرجة أو اثنتين.

أمضيت فترة ما بعد الظهيرة، وحتى الساعات الأولى من المساء، اقرأ ما دونه

السيد أبو حسنين في سجل مذكراته، وقد فاجأني بدقة تعابيره إذ بدا لي كما لو كان كاتبًا محترفًا.

قبل الشروع بكتابة مذكراتي القتالية الخاصة بي وبسنتين قتاليتين في سواتر القتال ضد داعش والمدن المحيطة بها، كنت قد دونت في دفتر مذكراتي بعض الأسطر التي جادت بها النفس وخزين الذاكرة المعبأ بكل الويلات التي جرت على شعب العراق على يد تنظيم القاعدة وداعش الارهابيين، المسخين اللذين اوغلا في الجريمة والقتل.

هي زفرة مواطن عراقي قبل ان تكون انطباعات مقاتل عقائدي أسهم بإدخال الامان إلى قلوب أيبسها الخوف.

ولدت وليس في فمي سوى طعم حليب أمي، ومضغة الطفولة التي رسّخت جذريّ الأول الموغل في عمق تاريخي حضاري مقداره ثمانية آلاف عام من حضارة حيّة متجددة عنوانها وفخرها العراق، ذلك العشق الأبدي الذي نحمل أحرفه دموعًا قدسية وسط أحداق ومآقي العيون، وننطقه لثغة طفولية سرعان ما تتسع وتتحول الى ترنيمة لا حدود لعشقها تمتد من ألف الله ولام الإقرار بألوهيته، لا إله إلا الله، والعين نهري دجلة والفرات، والراء رائحة أرضه المعطاء وهي تمتدّ من عمق جنوبه وجمال وسطه وأصالة غربه وسحر شماله العذب، والقاف، قاف قداسته التي ضمختها دماء التضحيات والشهداء عبر تاريخه الموغل والطويل.

(تفاجأت باللغة الثّرة التي كان السيد أبو حسنين عليها، لغة تشبه تلك التي نتداولها في كتاباتنا أنا وحسن الحمود ود. سليم عبد الصمد، وغيرنا من أدباء العراق الرائعين، تساءلت أين كان السيد يخفي هذه الموهبة في التعبير؟ لم يكُ من الذين

يجاهرون بمواهبهم الأدبية أو التعبيرية. أجبتني، لعلها التجربة، نعم التجارب المُرّة والجسيمة تتكفل بصقل سمات الإنسان، عدتُ لقراءة مقدمة كتابه بالتذاذٍ كبير) في طفولتي، لم ألعب مع اترابي ألعاب طفولتهم البريئة، كنت اشعر بجديةٍ تغمر طفولتي، وكانت عيناي محطتا حلم وحزن، بينما نظراتي تهرب الى البعيد، الى الحركة والانعكاس اللتين يتحرك فيهما ظلٌ يمتدّ بامتداد التربة، اتخيله جناحيّ نسر يستقرّ فوق سارية علمٍ .كانت نهارات طفولتي نهارات مشبعة بالصمت والصراخ المكتوم! وكنت متيقنًا انَّ لليلِ عيونًا تصادر منّا الاحلام، وانّ ثمة عتمة تختبئ في الازقة الحزينة لمدننا القديمة، اشعر بالنضج المبكر لطفولتي وانّ للطيور نشاطاً لا يشيخ وانّ للجنوب غناء موجعاً، يكسر اجنحتنا، لكنه يسأل الله ان يردّ لنا الحياة

كان اترابي ينهبون المسافات مرحًا، وكنت اتقصد ترسيخ اقدامي فوق التربة مستطلعًا الاماكن، يحزنني ذلك الإحساس الطاغي من ان لقلوبنا افواهاً مكتومة، إذ تستقبل أذناي نعي الامهات وغناء الآباء المكتوم، وتلك الاحزان التي لا شكل لها وهي تغلي حبيسة داخل الصدور المعلولة وأرواح الفقراء والبسطاء وهي تبكي بؤسها، وإرث الأجداد الذي ترك لأهلنا عادة ان يكون الموت تسليتهم الوحيدة، كان الصغار يمرحون بالطين ويشكلون به الكثير من التماثيل، بينما كنت اطيل النظر لصور قتلى الحروب المعلقة على جدران البيوت الحزينة فينتابني الإحساس الطاغي انها جثث هامدة.

كان صمت الفقراء وهو يتحول الى غضب عارم داخل رؤوسهم يتحول داخل محيط رأسي إلى صراخ مشروع ومحاولات جادة منهم لغلق أفواه الصمت.

كل الصغار الذين هم من سني كانوا يحملون في خزين ذكرياتهم الطرية الكثير من الألعاب البريئة التي لا تبلى، بل تتجدد بتجدد الأجيال، وكنت اكتفي دونًا عنهم بامتلاكي لذلك الإحساس المرهف والغريب من أن للأشياء كلها طعماً حزيناً، حتى غناء الطيور.

كانت ذاكرتهم تختزن ألعاب الطفولة والصبا، بينما ذاكرتي لم تكن أكثر من عبارة عن وجه حزين ينظر أبدًا إلى الخلف كي يعثر على روح الطفل الذي كنته، أنا بوعيي المختلف والسابق حتى للعمر الذي كنت عليه، لهذا نشأتُ متدرعًا بجلادتي، أحمل أحلامي العذراء داخل صندوق رأسي فأراها تتحول إلى كوابيس وسط قتامة الواقع، ليس في شاشات مخيلتي سوى نعي الأمهات وهنَّ يندبن الشباب الذين ابتلعتهم الحروب وغيّبهم الظُلم، ولا تبصر عيناي سوى الخطوات التي يرسمها الآباء المتعبون فوق تراب المقابر الذي يشرب دموع فواجعهم ويرسم صورًا لأحزانهم المقيمة، نشأت لا أفكر بأعين حبيبة تقف عند ستائر الانتظار، قدر تفكيري بمكافحة الظلم أينما يكون ومحاربة الظالمين مهما كانت قوتهم ودرجات قسوتهم، كنت أتيقن يومًا بعد يوم وسنة بعد أخرى، أَنَّ هذه الأحزان الجاثمة على الصدور والقابعة في دواخل البسطاء هي أحزان جعلت من الصمت سيدًا للأوقات كلها، فكان لابدّ أن يكون منشأها الظلم وليس من شيء غيره، تجلت متعتي لمجاهيل الأرض، وعندما يهدني التعب، وأجدني كيانًا متناهي الصغر في المساحات الشاسعة الممتدة ما بين الأرض والسماء، كنت أبسط ذراعي على سعتهما، أفتح فمي لتسقط فيه قطرة من مطر، وأخرى تدخل عيني، وأخرى تنساح على أنفي، صورة لا تفارقني، أنا الطفل الذي تعود أن يجوب مسافات الأرض بحثًا عن رأس خيط يقودني إلى التشكل

الذي أرغب أن أكون عليه، وحين يهدني التعب وأعود أدراجي، أفرك تراب مدينتي بسمرة أصابعي، فأشعر إنني حجر من أحجار أساساتها القديمة العتيدة.

لا أتذكر في طفولتي وصباي وحتى في بواكير شبابي، أنني سمحت للخوف أن يجد طريقه إلى قلبي، في الدرس وفي النشاطات الرياضية أو الاجتماعية لم ارتضِ لنفسي لعب دور الظِل أو المرؤوس أو المُسير، كنت فخورًا بأذرعي التي لم تلوَ حتى ولو مزاحـًا، لم يُسلب مني شيء إلا واستردتهُ بالحكمة والعقل، فإن لم ينفعا فبالقوة، لم اتهيّب من وحشة أو ظلمة أو تضاريس مريبة، لم يكن الغرور من صفاتي، قدر ما كانت ثقتي بالله وبنفسي تنيران لي دروب الحياة، لم أعش لأرسم خطواتي وهي تعود إلى الوراء، بل تتبعت إشعاعات أعيني وهي تتطلع إلى الأمام أبدًا، لأن السير على الطرقات التي تحمل آثار الماضي والذكريات فقط، قد تقود إلى الهلاك.

عشتُ من المتيقنين بنقاء الضمير وهو يحثُّ الناس على قداسة أن ينذروا الأنفس لخدمة الآخرين ونصرة المظلومين منهم، لهذا كنت أجلس وأفكرُ طويلًا بالكيفية التي تعود معها الحياة تلقائيتها، اختططت لنفسي وهي تجدّ وتجتهد فلسفة خاصة بي تتلخص من أن كل درب صعب في مسيرة الكدح والنضال والجهاد إنما يُقبّل أقدامنا دون أن تعلم أنه يشفق علينا مجللّين بحمل صخرة الشقاء الثقيلة، ومن أن الأيدي التي تحمل السلاح دفاعًا عن الأيدي التي تدير الآلات في المصانع وتحرث الأرض في المزارع وتكتب الحرف في المدارس وترفع الأيدي إلى السماء متضرعة، داعية، شاكرة الربّ الذي يمنح الأرغفة والكرامة، هي أيدي تعبر عن أعلى درجات السلام، حتى وإن كان الرصاص لغتها الوحيدة، وإن الوطن يستحق منا أن نفتديه بالغالي والنفيس، وأن نحافظ فيه على بسمة الطفل وجديلة الطفلة وحجاب الأمهات

ووقار شيبة الآباء وخفقة القلوب العاشقة وهي تشعر بالأمان، وأن لا نخسر أكثر مما خسرنا.

سأوثق يومًا ما سيرتي الشخصية وانتصارات أبطال السواتر التي وجدتها تصهل لبطولاتهم وتتوشح بدمي وبدمائهم، سيكون توثيقي للتاريخ، التاريخ الذي ستفخر به الأجيال لاحقًا وتهتدي بنوره، سنكتب سير الفداء بدمائنا، لشعب يحب الحياة ويعشق الأرض والسنابل، شعب بإمكانه أن يتحول إلى مارد جبار إذا ما فكر مَنْ سوّلت له نفسه أن يسرق منا قداسة الوطن وطهارة أرضه، أو من سوّلت له نفسه كشف حجاب العفة والشرف عن هامات نسوة العراق اللواتي منحهنَّ الله القدير أرحامًا مطهرةً لا تنجب سوى رجال البطولات والفداء.

فور انتهائي من قراءة مقدمة سيرة المذكرات، وجدتني اتصل بالسيد أبي حسنين لأجيبه:

- سيدنا آني موافق.

لله، السماء، الأرض، الإنسان، الحب، النماء، الحرب، الفناء، «اهبطوا إليها بعضكم لبعض عدو» هذا ما خطه الله بيد قدرته الإلهية في كتابه الحكيم، من أجل هذا قررتُ كتابة سيرة الدم عن الرجل الذي علمني معنى أن تعشق الشمس والتراب، كي أشعر بقيمة رجولتي أكثر، ولأعرف قيمة أن أكتب من قلب الحدث، بعيدًا عن الأماكن المرفهة أو البسيطة المغلقة.

داعش قُبح الأرض، هذا ما لمسته بوجداني وما رأيته بعينيّ، وما كابدته بروحي وجسدي ودمي، جوعًا وعطشًا وتعبًا ومعاناةً رفقة الموت الذي يمكن له

أن يختطفك بإطرافة عين، طيلة السنوات اللذيذة الشقاء التي رافقت فيها المجاهد والمقاتل الحقيقيّ أبا حسنين، الذي قال لي يومًا وهو يصحبني معه في كل الأمتار المشتعلة والمدن المستباحة ببشاعات داعش القتل والجريمة:

- أخي سنان، سأروي لك سيرة الدم أفعالًا تراها بعينك وتعيش لحظاتها بوجدانك، حتى يأذن اللهُ برصاصة الرحمة والشهادة وهي تستقرُ في جُزءٍ من جسدي لتحيلني من الذاكرة إلى الذكرى، سوف لن أكون أول الشهداء، وقطعًا لن أكون آخرهم.

طيلة سنوات المواجهة والقتال ولحظات الصفاء وتوقف فعاليات المعارك والمواجهات، طيلة أيام الاستطلاع والتقصي والاستشعار والتمكن ونصب الكمائن ورسم خطط المعارك بأقلّ الخسائر.

طيلة أيام تمتعنا بالإجازات التي كثيرًا ما كنا نقطعها حينما تتعرض ألويتنا لمخاطر ما، كنت أنهل من أقوال وأفعال أبي حسنين ما يعينني على كتابة سيرة وطن، هو السيد (محمد علي أبو حسنين)، سكن في النجف الأشرف من نسلٍ هاشميٍّ، وهو من جذور جنوبية، فكان العقلُ صفةً

بما منحته اياه مدينته بطابعها الديني وهيَ تجاورُ علياً، النجفُ الساحرة بثقل إرثها الديني وموروثها الثقافي الكبيرين، بمعالمها وتراثها وبنايات علومها الخالدة وآدابها الثرّة، بطابعها الشعبيّ المُوّشحِ بالمحبة، بقبتها الذهبية التي تضم أعظم الرجال بعد نبي الرحمة، بوادي السلام الساكن والممتد وهو يستقبلُ يومياً آلاف الذاهبين إلى طُرقات السماء صعوداً إلى الله المُطلق، تلك المدينة العبقة منحته الكثير من سجاياه

وصفاته.

وجدته فرِحاً بحياته، مأخوذاً بالطقوس الدينية العظيمة التي تحيط به، وبتلك العوالم والتفاصيل اليومية المُعتادة.

أخبرني أكثر من مرة إنه سيستشهد قبلي، كنت أمازحه قليلًا، فأخبره إنني سأعتبر قتيلًا في حالة موتي ها هانا على يد الدواعش، كان يجيبني بل ستكون شهيدًا محتسبًا عند الله لأنك لست أكرم مني، يا إلهي؟! هذه الفلسفة السلوكية ألهمتني، كان كثيرًا ما يخبرني إنه سيستشهد قبلي وإنه لن يكون أول الشهداء ولا أجملهم ولن يكون الأخير، وكان مُصرّاً على أن يروي لي سيرة دمه من سطورها الأولى أفعالًا أكثر منها أقوالًا، وكان يقول لي إنه يعيشُ على سطحِ أرضٍ تكتبُ مراثيها بدمائنا، تركني طيلة حياتي المشتركة معه أكتب وألمس كُلَّ شيء بتلقائية وبراءة، لم أجدهُ قانطاً ولا آيساً، لكنني وجدته يحاول أن ينحدرَ نحو أسفلَ نقطةٍ في روحه الصبورة بينما عيناه تنظرانِ إلى رحمةِ السماء والتحرر المُطلق.

لهذا وبعد أن انتهى كل شيء وآلت الأمور إلى ما آلت إليه سأروي لكم سيرة دمه من أسطرها الاولى، كما استطعمها واستشفها واطّلع على تفاصيلها الدقيقة بكمِّ الصور الهائلة والأحداث الجسام التي اختزنتها ذاكرتي المشتعلة، ومن واقع حياته التي تفتحت على جرائم البعث والحروب الخاسرة للطاغية والحصار وويلاته وإعدامِ أخيه الأكبر وجرائم وغزو الأمريكان وكيف أنَّ هذه المراحل قد أحرقت وأكلت كل شيء، الأصدقاء والأهل والأحبة والمدن، والثروات.

مراحل عسيرة كانت تقود المرء إلى سلوك أحد طريقي العقل أو الجنون، العقل

حيث يتوجبُ عليكَ أن تدخل الأتون وتواجه الظلم سعياً للاستشهاد، والجنون حيث تتحرر من الخوف والعيب فتتحول إلى رِمّةٍ لا تعرف غير الضحك الذي يشبه البُكاء سعياً للتهدمِ والموت عَفَناً.

كان جذره الهاشمي قد استفزهُ فقرر دخول الأتون لا شيء في رأسه غير صورة جثة أخيه وهي تتأرجح بحبال مشانق الظلم وفواجع المستضعفين والمساحات الشاسعة لهور الجنوب الذي مكّنه من المواجهة حين قرر أن يكون مجاهداً.

كان لقراره الصعب والخطير تساؤل كبير، إن كان مجنونًا، متهورًا يريد ركوب مركب العقل في محاولة منه لاختراق الجدار الصلد للعذاب، ذلك الجدار الذي تتلاطم بين دفتيه أرواح الأبرياء وهي تبحث عن فجر خلاصٍ ما.

في الليالي الأولى المسورة بالقلق كانت الرؤى الصالحة المغمورة بالضياء والبياض والاخضرار تأتيني على شكل صوت مهيب يهمس في دواخلي فيرجها رجّاً:

- ما أوحش طرقات الحق.

وكان ينهض في كل مرّة ليدخل في صلاة الفجر. -لطالما أخبرني بذلك مرّات عدّة- كانت الطمأنينة تملأ قلبه فيستحضر على سجادة صلاته كل الأسباب والظروف الغامضة التي اختارت له النبش في أنقاض الأحداث بحثاً عن الحقيقة، حقيقة الفعل عندما يغدو مجنوناً، والمفاهيم عندما تنقلب نكوصًا والجمال عندما يتحول قُبحًا والموت عندما يكون صنواً خارج نطاق اللامعقول.

كان يصرُّ على عكس معادلة سرد الأحداث، فلطالما كان يريد أن يبدأ بالأفعال

لا الأقوال من حيث ابتدأ الأشرار.

وجدته رجلًا موغلًا بالعذاب والمعاناة، منذ ليلتنا الأولى على السواتر التي كانت بمثابة نقطة الانطلاق، ليلة احتدام الأزمة مع الدواعش، الليلة التي أعلن فيها عن نفاذ صبر العقلائية فكان الجهاد الكفائي، تلك الليلة التي ساق بها العراقيون أنفسهم إلى المواجهة وإلى موت العِزّة حيث شهدت المدن والشوارع والبيوت أحداثاً غريبة شقّت عصا الرتابة التي كان الجميع قد استسلم لها صاغراً.

اعتدنا في أحلك الظروف أن نكون مبتسمين، نشدّ عزم من معنا، ونؤازر بعضنا البعض، وكان يحث المقاتلين على شرف نيل الشهادة، رسخّ في أذهانهم منطق المفهوم الذي يقول «لا حرية بدون تضحيات كبيرة جدًا»، التضحيات أرقام مخيفة تؤلب العالم على الجبابرة وتحرك الرأي العام.

كان يهتف بالجميع:

- لا حرية بدون تضحيات كبيرة، هكذا خُلقت لا أذوب إلاّ في حب الله ورسوله وآله، ولا انصهر إلاّ مع الجماعة، بيني وبين نفسي لا شيء يسكنني غير الحزن والوحدة والوحشة، الأشياء التي أهرب منها إلى الله، أسألهُ فيها أن يُنير لي ظلمة القلب والدرب معًا.

كنا نراه وسط الجموع المؤمنة يذوب فيهم وفي حبهم ويحصي عليهم أنفاسهم وسكناتهم ويعيش معهم حلاوة أحلامهم وتطلعاتهم بغدٍ لا ظُلم فيه ولا احتلال.

من أجل هذا وجدتني أكتب في مسودات مفكرتي:

هذا هو العراق أرض وسماء، نهران خالدان وسفوح ووديان، جبال شامخة وقمم وتلال، أراضٍ خضراء وصحارى ممتدة، هذا هو العراق، أهوار وسع المدى وتراث وفلكلور وتاريخ وحضارة وأديان ومذاهب وطوائف ومِلل ونِحل، هذا هو العراق بشعبه خُرافيّ الصبر ومدنه الراسخة الجذور في تُربة التاريخ وصفحاته المُشرقة والمُظلمة، هو الوطن العصيُّ على كُلِّ شيء، يرفع ذراعًا قوية ليردّ عصا الذُل التي تُحاول أن تسلخ منهُ مجده وتحثهُ على تعود الوجود الغازي، كتبنا بدمنا أن لا مكان لمعتدٍ آثم.

تلك هي مدننا بجنوبها ووسطها ومركزها وغربها انتفضت لتنشل الجذر من الضياع وتحاول ترميم ما تحطم من بقايا وطن عزيز، تحاول أن تعيد للطفل أمانهُ وأحلامه وللأب هيبته ووقاره وللأم عفتها وروعتها وللأجداد حكاياتهم الدافئة والرائعة وللأحياء جميعًا لُغاتها ولهجاتها المُحببة.

بعد فتوى الجهاد، انتفض الكُلُّ من أجل أن تحتفظ البيوت بدفئها وحرارتها ولتحول دون أن تصبح الجدران هياكل داخنة لا تحمل غير صور الموتى والشهداء، انتفض المهد وكبر الطفل وجسّد نعي (الدللول) رجولة أعادت هيبة الأقاصيص والأساطير التي دوّنها الأجداد.

الدبابة التي أسقطت الصنم الصدامي أصبحت غولاً مخيفًا يحاول الاستئثار بكل شيء، حين تيقن المحتل بصلابة العراقيين، أدخل داعش لتعيث خرابًا بالأرض، فإذا ببريق الإرادة يبرقُ في الأعين كلها لتتحول الهمهمات إلى أناشيد مواجهة قادها أطفال الأمس الذين أصبحوا رجال اليوم والكل يهتف بصوت واحد: (ما خسره

الآباء بالأمس، لن نخسره أيضًا وسنسترده بقوة السلاح).

منحني السيد أبو حسنين دروسه أفعالاً ومنها أن الشعب لم يكن ليرضى أن ينتقل من عبودية البعث إلى ذلة الاحتلال عندما يجد أن كل ما يُحيطه أصبح أمريكيًا بامتياز، فكل احتلال في العالم يجعل الإنسان يعيش غريبًا مع ذاته ومع ما يحيط به، كذلك نبهني بأدلته القاطعة أن فشل الأمريكان بإذلالنا، قيّض له إيجاد جرثومة داعش، وهكذا شاء لنا أن يصطبغ العراق بالدم والدموع وأن نصحو على واقع مرٍّ موشح بالكوارث والمجازر، شهداء، سجون، حطام، لا شيء سوى الإرادة، الأجانب الأغراب الذين جلبوا معهم زيف الحرية للعراق، جلبوا معهم الذُل والاستباحة والعبودية، كل الوعود كانت كاذبة، العيش بسلام أجابت عليه الطائرات والمدافع والدبابات دمارًا شاملًا عمَّ المدن كلها، على مشارف كل مدينة مذبحة، وسط كل شارع حطام، تلك كانت ثمرة حريتهم الزائفة.

من أجل هذا انبثقت فكرة الجهاد والكفاح المسلح، كانت المواجهة هي الحل الوحيد، لهذا اختار العراقيون طريق المواجهة عن قناعة تامة، طريق الثورة على الظلم، فانبرت العقول والأذرع والأفئدة والصدور والأرجل والأقلام كلٌّ يوظف طاقاته للإسهام في المعركة، لهذا صدحت أصوات الإطلاقات النارية والعبوات الناسفة والحناجر والأناشيد والقصائد والضمائر والروايات والقصص ومهرجانات التعبئة العسكرية والجماهيرية لتدين الاحتلال وتحثّ على مواجهته. وانسحب الأمر على رد الدواعش، فكُلُّ طرقات الليل المشتعل كانت تغذُّ السير وتحث الخُطى للوصول إلى الدروب التي تقود إلى نهارات الحُريّة مخافة أن يسلب الطغاة منّا أدياننا ومذاهبنا وتاريخنا، هم ومن تبعهم من مرتزقة الشر المتسترين برداء الدين.

في الانكسارات الأولى انتاب الجميع الشعور بأن الوطن ما عاد يُشكل لنا جميعًا أكثر من منفى وسجن مريع، لطالما أخبرته بذلك آيسًا، وكان جوابه:

- الوطن يا سنان يُشعرك بزهو الحياة والاعتزاز بهويتك الإنسانية، لهذا اخترنا صدر الوطن ملجأً نخبئ فيه الأحلام والأسلحة.

كنت أرى تعشّقَ سمار وجوه المقاتلين بسُمرة التُراب لهذا لم أراهم يبالغون في شيء ما عدا قلّة اكتراثهم بكثرة عدّة وعدد العدو والموت المرسوم على الطرقات، لقد وجدتهم بمرور الأيام أكثر صدقًا وعدلًا وأشدُّ تضامنًا مع أنفسهم ومع بعضهم البعض.

كانت ليالي المواجهات شديدة السواد والوطأة، قاسية التفاصيل، لهذا وجدت المقاتلين المرافقين كالظلال لحركات أبي حسنين كلها، يتركون ثقل التاريخ والقصائد وأدعية الأمهات وعزائم الآباء تسير بهم إلى نُزهة الموت، الموت الذي جلب لهم وللأجيال التي ستليهم حقهم السليب الذي لا ينازعهم فيه وعليه أحد، كنا نتألم في صميم أرواحنا المُتعبة من قلّة الموارد مقارنة بتدفق الأنصار، لهذا اقتنعنا أنَّ الأشجار التي تُزين حياتنا يمكن لها بسهولة أن تتحول إلى مقابض وتوابيت تنقل أشلاءنا إلى أرض السلام من أجل أن تستمر الحياة في الدوران.

نعم كُنا نعلم جيدًا وهذا ما علمنا إياه أبو حسنين أن لا شيء أجمل من المحبة والسلام، لكن ذلك لم يمنعنا ونحن نرى الوطن يصبح نهبًا لمن هبّ ودبّ من أن نترك قيلولة البيوت المُظللة بأوراق الشجر وبرودة الستائر وننهض من أجل أن نجعل من تاريخ بلادنا قصصًا للمواجهة والبطولة.

كانت كلماته تنزل علينا كما البَرَد وهو يترنم أمامنا في الصباحات المشحونة بالترقب:

- كل انسان يستطيع أن يبني مجده بيده وأن يخطّ طريق مرضاة الله بدمه الزكي، لهذا فالخيار صعبٌ يا اخوتي.

كان يغرس فينا حقيقة أنك حين تصنع نصرًا ضد آلة العنف الجبارة من صرخة الغضب التي تطلقها رصاصاتنا القليلة ومن انفجار المعنى واكتماله في أناشيد المقاومة وقصائد الحماسة فهذا يعني أننا كلنا قياديون لغيرنا ولأنفسنا، كلنا يعرف ما كان عليه من واجبات ينجزها بصمت، ومهام جسيمة وخطيرة يملأها بكيانه ويسقيها بدمه.

وجدتني أشاركهم كل تفاصيل جهادهم، متناسيًا أنني لا أجيد شيئًا غير الكتابة وإطلاق النكات، شاركتهم كل جحيم المعارك والتعرضات، صار لوني أكثر شبهًا من ألوانهم، قطعٌ متحركة من سُخامٌ وتُراب، كل شهيد يسقط على ثُرى الوطن كان يبدو لي كما لو انه يكتب تاريخه وملاحمه بمداد من دم، كل بطل فيهم كان يُسطر مجدًا ما لا لكي يكون لقبهُ جُنديًا بل إنسانًا بالمعنى الراقي للكلمة، كانت شدة المعارك تأكل أجسادنا بينما الذاكرة تحفر الأسامي على أروقةٍ من ذهب، ولأننا من وطنٍ له هيئة شاعر فإنهم كانوا يغوصون عميقًا في الحديد، ومع ذلك كنت على الرغم من جلادتهم وسمرتهم وقسوتهم وخشونتهم، أراهم كما لو كانوا سيولدون من أرحامِ الورود.

هكذا كنتُ أفلسف أيام التكوين الأولى والمواجهات التي جرت على ثرى المدن التي دمرها داعش ملتزم بإمرة قائد بسيط ومحنك في تلك المعارك القاسية، كان أبو

حسنين يبدو مختلفًا عنّا جميعًا، كان كلما يحيط بنا يثير فينا الحزن والمرارة والألم، كُلُّ ارتفاع لزاوية قتل مخيفة لبندقية آلية تُصوبُ إلى رؤوسنا كانت تعبّرُ عن قبحٍ وبشاعة.

كنا ندخل في مواجهات شرسة ضد داعش القبح، وكان يتخذ مكانًا قتاليًا قريبًا من الجميع، يهتف فينا بصوته المجلجل:

-شباب، أذكرُ إن لي طفولة في حواري النجف أنهيتها بحلم أن أركب القطار يومًا ما، الآن أنا وأنتم نركبُ قطار الموت، نرى طرقات المواجهة ماثلة أمامنا أبعد من أطراف بنادقنا الحبيبة، أول شهيد منا سيكون أكثرنا سعادة في الجنة مع الحور العين.

كان المقاتلون يتحمسون لما يقوله أبو حسنين تحت أي ظرف قاسٍ، كانوا يمدون الأبصار إلى مدياتٍ تقررها (الفُرضة والشُعيرة) أبعد من كل مدياتِ أطراف الأقلام التي كانت تُشخّصُ الخلل ولا تقوى على مواجهتهِ فعليًا.

في أول معركة جادة رافقنا فيها أبو حسنين، جعلنا نسيرُ إلى الموت راجلين من أجل وجودنا الأسمى في ظلِ الحرية المُرتجاة والفوز برضوان الله المقتدر، جعلنا بعد ليلتين من الترقب، نقاتلُ ونجوعُ ونظمأُ ونحرسُ وننتصبُ ونضحكُ ونبكي ونُجرحُ، لا لشيءٍ إلاّ لكي نُدركُ الحقيقة الشاخصة أبدًا (كيف تسقطُ إلى الأرض فتمحو الدماء حروف اسمك وتستبدلها أبدًا باسم الحُسين، حقيقةُ الحُريّةِ الماثلة) كان أبو حسنين من أكثر الذين حببني بالإمام الحسين ثوريًا أكثر من أي شيء آخر.

كان البعض منا يخشى العدو ويخافهُ حتى الارتعاش، فيقبعُ في زوايا ملجئِهِ ساكنًا، ولم أكن لأعرف ما الذي أحدثه أبو حسنين فينا، ونحن نراه يقرر أنَّ الأعداءَ

أناسًا عاديينَ بأرجلٍ وأذرعٍ مثلنا لكنهم لا يُؤمنون أن الأرض التي دمروها نحنُ مَن يزرعها ويحصدها ويحرسها ويبنيها لأنها وطننا الآمن، ذلك هو الفرقُ بين أن تكون مواطنًا صالحًا وبين أن تكون وحشًا مرتزقًا.

جعل أقدامنا وأصابعَنا، تترك آثارًا على الثلج، الماء، الرمل، الحصى، التمر، البرتقال، الحنطة. كان يوهم الأعداء أنا نبدو فتية نافذي الصبر، متوترين، منقبضين، سيئين، خشني الطباع، للدرجة التي يرى العدو فيها أننا نحمل وعيًا سيئًا يكاد يكون مُعدمًا وأنّ فينا من البؤس ما يكفيهِ ليمتلك مبررات قتلنا، لكنه سرعان ما يورط العدو بجعله يبدو مسكينًا ذهب بالجُند إلى الحرب بلا نشيد لهذا لم تسعفهم آلاتهم الحربية المتطورة في الانتصار علينا لأنهم أعدموا القضايا العادلة باسم الارتزاق.

تركت المعارك الشرسة آثارها الكبيرة علينا جميعًا ونحن نتفقد بعضنا البعض لنصل إلى حقيقة من صمدَ ومن استُشهدَ ومن جُرح، كانت أيامًا قاسية اختُبرَ فيها الرجال الرجال.

أملى مركز القيادة الذي تولاهُ أبو حسنين تواجده في الأماكن كلها، كان من المُسلّم به أصحابه لي معه، كان كثير التفقد لإخوته وأبنائه المقاتلين، أولئك الفتية الذين تشابهت سُحَنَهُم مع لون الأرض، يحرصُ على التواصل معهم لحظة بلحظة في ساحات السكينة والهدوء المحاطة بالحيطة والحذر، وفي أوقات احتدام المعارك وقسوة الاشتباكات، لم تمنعه خطورة الأوضاع في الخطوط المتقدمة من ذلك، كان حريصًا على أن لا يُقلل من قيمة أبطال الخطوط الخلفية لأنهم السند والخزين والذخيرة والديمومة، أما في التعرضات المفاجئة أو الشرسة فكنت أراه يُسابقُ الفتية

ليكون أول المتقدمين وآخر المنسحبين، صحيح إنَّ خوف المعارك أحيانًا يتصاعدُ أمام نواظر الجميع مثل قلعة، لكن من يُؤمن بعدالة قضاياه يجد نفسه هو مَنْ تحوّل إلى قلعة عصية.

حرصتُ في المراحل كلها لتلك الأيام الضّاجة بالمصاعب على تدوين كل شاردة وواردة، كلما كنا نتقدم في صفوف منتظمة وأخرى مبعثرة، ونسير في متاهات مدننا المُستباحة المنسية وطرقاتِها الطويلة المُمتدة وأزقتها الضيقة والمهجورة، عندما يجر كلٌ منّا قلبهُ ومنيتهُ على الأرض وهو يسمعُ نعيَّ الأُمهات، لم أكن أعرف شيئًا عن نعي الأمهات، لكن أبا حسنين وبعضاً من المقاتلين المقربين تولوا مسؤولية فك شفراته لي، يا إلهي كم وجدته موجعًا، ذكرني بترانيم الجدّات والأمهات المسيحيات على مذبح الشهادة.

كل اللحظات كانت صعبة لكنها كانت طيبة الذِكر أيضًا وأنتَ تستعرضُ قوائم أبطال الليل والحجر والتُراب والبارود.

كانت كل الجدران مزينة بآثار ضرب الإطلاقات النارية وأصوات القذائف وهي تتساقطُ على مفارق الطُرقات والمدن.

وحشة ليالي المواجهات تقود الروح إلى بوصلة بيضاء مغمورة بالنور يشعر المتجه إليها موشحًا بدمه بطمأنينة وسلام جميلين، حتى إنَّ أحذيتنا المُتربة وشِبه المُمزقة كانت قد أدمنت السير على مفارق الموت بنصف تعب ونصف بُكاء، كنا جميعًا موقوفين بماضٍ يستشرف الحاضر، نبصرُ وحشية عدونا وهو يقبضُ على أزمنة الخوف والخيانات فلا نستكين.

عمد الجميع بتوجيهات وتعليمات من أبي حسنين قائدًا وأخًا إلى أذية عدونا بشيء من الكتمان ونصفٍ من إرادة تعطلها الإمكانيات الضعيفة في الغالب، كنا نشعر به يحترمنا ويحب أن يخوض بنا لعبة كسر الإرادات والموت دون ذلك، كان يزرع فينا حقيقة أن عدونا يُمعنُ في أذيتنا ليُثبت لنا قوتهُ وبطشه، وسطوتهُ علينا، وعليه فنحنُ مجبرون أن نتّبع معه الأسلوب ذاته، فنمعن في إيذائه لنثبت لهُ حقيقة وجودنا بين أحضان وطننا المُستباح.

كان العدو يرانا ترابًا، وكنا نصبر على المواجهة فنقذف اخضرارهم بالهزائم المُنكرة، كانوا معتدين بشراستهم وكنا نُعذبهم بأساليبنا المختلفة التي تجعل من حماستهم شائكة للغاية، كان المقاتلون الحشديون إخوة وهم يلمسون بأصابعهم المسخّمة أذرع وأكتف بعضهم البعض من أجل أن نزيل عن كواهلنا ذلك التعب الخرافيّ الذي كثيرًا ما كان يزورنا.

كثيرًا ما كنتُ أتهيب في سؤال أبي حسنين عن حقيقة العدو، وكان يقرأ تفاصيل سؤالي في أعماقي المرتبكة، فيصيغ السؤال بعناية نيابة عني، ثم يجيبني بصراحة وأريحية:

- يجب أن أعترف لك يا سنان، بالخبرات الكثيرة التي يمتلكها العدو بمعاركه المحبوكة فوق رؤوسنا الحالمة بالتحرير.
- هل أمرهم خطير؟
- جدًا، وكذلك ما يمتلكونه من إمكانيات.

كنت أجدهُ بعد انجلاء المعارك الشرسة يحنُّ بعمقٍ إلى الذين يسقطون شهداء بيننا فتمتد به سكك القتال التي يسبر أغوارها برجولة، بينما الحزن يلف روحه بعباءته السوداء فيذهب إلى الأماكن التي احتفظت بآثار دمائهم ونحاول معه باكين أن نوقظ الشهداء كل ليلة بغير كلام.

حرص أبو حسنين على متابعة الجند وسط كل الظروف العادية والحرجة ليشعرهم أنَّ ذلك يلهمهم ويمدهم بطاقة استثنائية، كنت أرى الجند وهم يهزجون ويتلون الشعر الحسيني ويتمازحون ويتبادلون النكات ويستذكر الشهداء الغوالي الذين فارقوا الحياة، ثم سرعان ما تأخذه حالة من السَرَحَان، فيلتزم البكاء والدعاء، ويجعلنا نشاركه الحزن بنحيب عالٍ على من كانوا فتيانًا في مقتبل العمر أو في بواكير السن الناضجة، فصهرتهم ظروف الحرب حتى احتلَّ الشيب وجوههم بسبب نُبل المآسي.

أكثر ما كان يخشاه فينا، أن تولد الأيام في أفواهنا وهي تشبه الخيانات، كل يوم خيانة كان يشكّلُ لنا مذبحة، كان يحرص على إماتة الضعف فينا، فيطلب منا أن نكون أقوياء حتى التوحش.

كان يتألم حين يسمع بسقوط بعض القواطع أو المدن، فيصرح منفعلًا:

يا إلهي كم يقتلنا جبن البعض وضعف البعض وتآمر البعض الآخر؟

كان أبو حسنين يعرف مقدار الألم الذي كنا نكابده كلما فقدنا شهيدًا، وهو ألم لم يصل العدو إلى مستوى طهره ونقائه، لذلك كانوا يموتون ونحيا ونموت ويكذبون.

كم هللوا لإرهابنا وجعلنا نبدو وحوشًا كاسرة مصابة بشراهة القتل، كانوا يعلمون جيدًا أنهم ومن يغذي آلتهم الاستخبارية واهمون جدًا فالوطن وطننا والأرض أرضنا والمقدرات مقدراتنا والتراب ترابنا لهذا كانوا يدارون برفيف الخوف وكنا ننبثق من فوق الجسور ومن وحشة الطرقات.

كنا نجعلهم يتعطلون مثل دود فاسد بسبب عدم عدالة حربهم ضدنا وصبرهم القليل، وهذا ما كانت تؤكد عليه القيادات الحشدية والعسكرية الخبيرة.

كانت صباحات المواجهة صباحات متوترة، توقظنا هواجسها، نبصرُ أرواحنا وهي تقصّ لعبة الزمن الصعب، تصيح بنا:

- دونكم المعارك فإما أن تَقتلوا وإما أن تُقتلوا.

ما كان لنا من سبيل غير الاشتباك معهم محملين بالإرادة، كنا رجال ليل نفتح أرصفة الشوارع ونهزّ الأرض هزّاً، وكان الموت ينتخب أسماء المغدورين فنرضى لأننا كنا نعشق الشهادة.

كان الوهم ينفلق من حولنا وهو يقبض على كل ما عمه الارتباك، ومع هذا كنا نطرد احتياجنا إلى العيش الذليل وحين يعلو بنا الغليان كنا نمنح الأرض شهيدًا أو جريحًا، وكان هذا يمزقنا.

يا إلهي؟! في أية مراحل من نضج العقل وضعني أخي وقدوتي أبو حسنين؟ كم كنتُ أعشق أولئك الفتية الملثمين وهم يتوحدون مع ألوان الليل الحالكة ويتركون لعيونهم الحذرة أن تبرق في الظلام مثل نجوم صغيرة.

كثيرًا ما كنتُ استيقظ من بقعة صبر شاسعة تمتد على أنقاض أحلامي وأنا أرى دماء قتلى الأعداء تعلو السقوف بلونها الأسود المحترق، وكنت لا أملك عند استيقاظي غير غسل وجهي والدنوّ من أبي حسنين.

كانت المعارك والحرب آلتي موت رهيبتين تختزلان فينا التوثيق والكتابة لهذا وجدنا أنفسنا رجال أفعال لا أقوال، كلما اشتدّ علينا القصف وقست لحظات الموت الصعبة، كان يصحبني معه، وهو يصرخ بي:

- اركض معي صوب المنية، فإن لم تسقط فاحتفظ بتلك الصور في (رام الذاكرة) يا إلهي، كنا نعدو ونضحك بمزاج، كأننا في نزهة، وحين نصل الى مكامن النار والحديد والشظايا، أجدني معه بكل ما للتجرد من الخوف من معنى، نخترق الصفوف التي يهيمن عليها الدخان، نمتدَ على الأرض المفتوحة، نركنُ إلى التلال أو السواتر الصغيرة أو المخلفات المحترقة لنضمد جراح من أصيبوا قبالة الشمس ونحن نفطم الخوف والملل فنشُدَّ بالأهازيج أزر بعضنا البعض كنا نوغل فيهم قتلاً كلما تأخرت دماؤنا عن الإنبجاس، وكانوا يرموننا بطنين أسلحتهم كي يروا دموعنا وكنا نردُّ على طنينهم بمثله كي نقرأ الهلع على تقاطيع وجوههم الجرباء.

كان صراخ عزائمهم يشبه النباح وكنا بينهم نكتبُ مجدنا بالطين وبالتُراب، وكان الفجر يهلل حين يسمع حشرجةً لشهيد يسقط مضرجًا بدمائه الزكية.

يتحول الليل إلى جحيم، كأن أصوات قاذفاتهم وأزيز رصاصهم المحرّم والقنّاص وفرقعة هاوناتهم تُشكل لنا دافعًا لزيادة درجة غليان المواجهات فيكاد التخطيط يفلت زمامه بفعل الغيرة لولا حنكة القادة، ومنهم أبو حسنين، لهذا كانت

رائحة رشاشاتنا تعرف تقلبات مخاوفهم فتمزج تلك المخاوف بضراوة شراستنا، كانوا يسمون أنفسهم نمورًا وكنا نراهم ركاماً ودُخاناً.

أقلبُ الأحداث لحظة بلحظة وساعة بساعة مستعرضًا وجوه المرابطين فأراها وجوه الماضي وأراها وجوهًا سمراء تنتمي إلى الطيبة والفطرة والأرض، وحين أرى قدوتي الجميل أبا حسنين يسجدُ لله، أسمعه وهو يناجي الربّ شاكرًا نعمتي المرابطة والشهادة متيقنًا أنَّ الحروب هي أعلى محن البشر.

كثيرًا ما كان يُذكّرُنا أن محنة الحرب من أشدّ المحن التي لا نملك فيها شيئًا مضمونًا أو مأمولًا، لهذا كنا نسير معه إليها كمن عصب أعينه وفتح بصيرتهُ على آخرها، ففي الليل كانت الفخاخ تضطرب وليس من مكان لمن لا يمتلك الإرادة.

ما زالت شرسة أيام القتال وتسيطر على مخيلتنا وتفكيرنا وأنفسنا وكيف أنهم كانوا يستنسخون ذئابهم ويوزعونها في طرقاتنا كي يضعوننا أمام حقيقة الموت، ولم نكن نحفل بذلك لأن الشهادة كانت مسعىً لنا.

قبل أن أتعرف على أبي حسنين كانت الحياة تستفزني بملذاتها وهمومها الصغيرة العابرة، أما الآن فلقد اختلف الأمر عندي، بُتّ أرى أبخرة الإيمان تتطاير في ثقة مطلقة محاطة بقلوب اتخذت من بياضها الناصع مسلكًا، قطعًا كان هو السبب في ذلك، كنت من ضمن الذين منحهم ذلك الفدائي المجاهد درسًا بليغًا في المحبة المطلقة، قال لنا يومًا، ونحن نكمل استحضاراتنا تصديًا لهجوم جديد:

دعونا نتفق على المضي قُدمًا بفكرة أنَّ من يحاول إشعال المصابيح دون إشراقة قلب نقي فإنه سيسهم من حيث لا يعلم بإطفاء الأمكنة.

جاء هذا الاتفاق بعد أن توّحدتْ رؤانا ودمانا وأدمنت بنادقنا أزيز رصاصها كلما شددنا عليها قبضات من سمارٍ ومن تعرقِ جهاد.

جعلنا أيامها تفرك أنف الليالي الحالكة الظلام للالتحام بمن استعذبوا لعبة فوضى الموت باسم التأسلم الزائف، وكنا نندكُ في تربة الأرض كلما استطالت مخالب الأعداء، لذلك جاءت قصصنا صادقة إذ تندّى التراب بدمائنا، وكنا ندفن الشهداء ببكاءٍ دون عافية ثم نمضي كالليوث طلبًا للثأر والفداء، كانت قذائفنا تشم رائحة أجسادهم الطرية فنطلقها بثبات بحثًا عن انتصار يحفظ هيبة الخبز في تنانير الأمهات، كم كان عذبًا أننا وعند ولادة كل فجر جديد تُخالط دمانا ندى الصباح فتورق أشجار مدننا وتخجل الشمس من إشراقها، كان ذلك يمثل فعلًا خط الإيمان العميق الظلال الراسخة لثوابت أولئك الفتية سمر الوجوه، فيمنحهم ديمومة المطاولة والاستمرار، سر التمسك بحياة الجهاد عبورًا إلى الشهادة، هكذا كنا نتواصل بألفة ومحبة ونصل الليل بالنهار والنهار بالليل من أجل أن نصنع ملامح الزمن الواعد.

علمنا وهو يرسم خطاه افعالًا، كيف نخلط المفاهيم بالمفاهيم ونحاول إزالة الركام عما جرى ومضى، ونحاول أن نعيد لقيم البطولة ما تستحقهُ من أجل أن نشذبها من الهموم ونصقلها بالنمو والتفتح من أجل تفاصيل حياة جهادية تؤمن أن الحياة كلها عبارة عن وقفة عِز بين يدي الله ورأس غير منكّس أمام تربة الوطن لا أكثر ولا أقل، كنا نتحاور ونتداول ونطرح الأسئلة الكبيرة والخطيرة من أجل أن نديم مفاهيم معاركنا الفتية ضد القبح الداعشيّ، فخورين بركوب صهوات البطولة باتجاه التضحيات الجِسام وصولًا إلى أعلى مفاهيم الشهادة.

كان يدور بنا في عمق المدن المستباحة الجريحة، من أجل أن تتشكل ملامح وعينا وإحساسنا بعدالة قضيتنا وتكتمل شجاعتنا وينمو صدقنا ويتكاثر حبنا اللامحدود للقتال والفداء، فيكتمل فينا جوهر الإنسانية ويبَرْقُ معدن البطولة من خلال نحيب الثكالى وعويل النساء وصراخ الأيتام وخراب المدن.

طيلة سنوات التحرير والمواجهة لم نكن نرغب في حياة الحريات المجزأة، حرية الخاص على حساب العام، وحرية الأصنام على الإنسان إذ يتصنّم الفرد بعد أن يستولي ويرصِّن ويتضخم وينفجر ويتبلد في ملاذه الحقير، وحرية سرقة جهود الناس عوضًا عن إسعادهم، وحرية الشبع على حساب جوع الملايين، لهذا لم ندخر جهدًا في بذل المستحيل من أجل الحرية الحقّة، حرية الجماعة على الفردية، حرية القُربى إلى الله ونبذ طريق الشيطان.

كان العمل الجهادي طيلة سني المواجهة، مهلكًا يتوقف عليه مصير الشعب برمته، وكنا قد تعاهدنا على تدمير العقبات التي تقف في طريق سعادة الشعب، لهذا استنهضنا الهمم واتكلنا على غيرة الشباب المؤمن من حملة العلم والفكر والقلم والثقافة والسلاح وانطلقنا على بركة الله من أجل تحقيق حلم النصر.

عشنا أيامًا صعبة وليالي حالكة الظلمة بين هاوية وقمم أسلحتهم، وبين قرابيننا الطاهرة، كان الليل يلتف بنا عليهم فيكاد رصاصنا يُذهب بما احتسوه من أحقاد، لذلك مضت الأيام صعبة وكانت الحرب أصعب منها، كانوا يستقوون علينا بأسلحتهم الفتّاكة وكنا نلوذ بصبرٍ مطلوب فإذا ما انعدم صبرهم انقضضنا عليهم وشتّتنا شملهم فالحرب خدعة كما ذُكر في كراريسُها.

بالنسبة لي لم تسر وتيرة الأيام معي بما أحب وأرغب، فبعد أن توليت مسؤولية التوثيق والأرشفة فضلًا عن القتال تعرضتُ إلى إشاعات قاصمة ما كنتُ اتوقعها، فجاءت الإجابة سريعة وقاصمة هذه المرة بأمر من السيد أبي حسنين:

- إن هدف الرجل جهاديًا، لا شكّ فيه، وغايته محاربة الأعداء الدواعش.

كانت هناك محاولات خفية لتسقيطي لم أجد لها مبررًا، أعلم إن الحرص شيمة من شيم الصراع، لكنني أشعر بالغربة حين يتحول الحرص إلى مطلب دنيوي باسم التسقيط، كنت أبكي في وحدتي مما يجري عندما تُقابل تضحياتك بالتسقيط والكراهية، وكنت أقول:

- إنَّ للوفاء سقطة دونها الشهادة، فلِمَ التسقيطُ والسماءُ خيمتي والسواترُ بيتي مثلكم تمامًا. حدثتني نفسي المريضة بما لم أكن أحب الخوض فيه، تساءلت بيني وبينها في ظلمة أعماقها السحيقة:

- ربما كانت مسيحيتي هي السبب، لم أكن أصلي وأصوم مثلهم، ربما شكّل ذلك عقدة عند البعض منهم، ليتني توانيتُ طاهرًا من هوى الضعفاء وتصفحتُ طيني كي أكونَ على حذر، الإحساس بالخيبة مر جدًا وما هو أقسى من مرارته أن تستشعر بحدس الخبرة أنَّ ثمّة من يحاول الشطب على اسمك في دفاتر الإخلاص والوفاء!!!

لذلكَ تركت قلبي ينزف ألمًا وراحت يداي إلى حنيني ولم أمتلك غير أن أقف أمام أبي حسن وأبكي بمرارة، احتضنني بقوة، كان يعلم بحالي قبل أن أبوح له بشيء، قال لي:

- لا عليك، استمر أخي سنان. -أجبته-

- ولكن...

قاطعني بهدوء كبير:

- كثيرًا ما كنت أسأل نفسي عن هواها مخافة أن تذهب ضحية له، ولما أراني مبرأ من ذلك الهوى اتساءل بعد كل صلاة أيّ حب كنتُ أبذره على تربة أخطاء الآخرين وحسدهم؟ - تعبت سيد.

قال:

- الجهاد يتطلب العون والتعاون، المحن أعطشت الجميع، فمن ذا الذي أسرى بريح الكراهية وهي تتخطى بكرسيها الرخام طلبًا للدنيا فتجلد بحياة الحسد طيبتك وسلامك يا رجل؟

أجبته:

- كنت أراهم وأعرفهم وهو ينامون في مهود أخطائهم على هيئة الملائكة! كنت أراهم وأعرفهم وأقنع النفس بتكذيب ما أرى وما أعرف لأن....

- الكراهية لا تدوم بل تحرق والخالق يكره الظلم.

أبكي بصمت خوفًا على إرباك صلابتنا في القتال، استمريت في التدوين والأرشفة والتوثيق بينما كانت دماء الشهادة تلجم الأفواه، كنت أكره الاستكانة لذلك ازددت التصاقًا بأبي حسنين، كانت حرية ليل السكون والراحة تصيبنا بالهرم،

أمّا أرض المواجهات فكانت راحتنا وهويتنا لهذا كان يجب أن نستمر.

كانت الأيام تمر صعبة وكنت كلما اقترب من الاستسلام للصمت والعزلة تعوي وحدتي وتشتاق روحي الى تربة الأرض وأزيز الرصاص، أبدًا ما كان يحلو لي الرقاد غير اغفاءات متقطعة قصيرة تحت ظلال السواتر أو البنايات المهدمة وكان هذا يشعرني براحة كبيرة، ويقربني جدا من نجفية القلب الربّاني لأبي حسنين التي كانت تقودني بنشوة الى مداه الجميل.

ثمة نزفٌ أصابَ أرواحنا وأصواتنا ودواخلنا وصيحاتنا بغية أن نرسّخَ مفهومنا العقائدي وهو يشير إلى نوعين من الرجال، رجال تسقي الأرض بدمائها، ورجال تبني بشرورها فحش الأرض!

كنت أتأمل أبا حسنين وهو يصلي بجنده جماعة، يقف بين يدي الله، يفيض بشكواه ليجري أدمعهم، ليكون الانحناء والسكينة حصيلة ذلتهم، كان يعبئ روحه وجدانًا حتى إذا ما علُق فيه من هوى الدنيا شيء سأل الله الرحمة والمغفرة وبثه قلة الحيلة وتوسله الشهادة.

كانت صور الشهداء تقتلني وهدوء أرواحهم وهي تسيل بأيدي الآخرين الآثمين بكل ما يحملون من قسوة.

كنت أهرب من طقوس صلاتهم إلى دائرة التأمل فيمتد ظلي كله على الأرض موشحًا بلون الدم فأعرف أن الربّ راضٍ عنا وأن الشهادة باتت قريبة عنّا.

كانت شكواي التي يحيط بها الصمت، صرخة تغطي عظامي وتبكي حاجتي

إلى هزةٍ ما، أشعر كما لو أن حيلتي بلا عهد وفاء، تشبه حالة حطّاب تحيط به الذئاب.

أتوق إلى الجهاد، أتوق إليه جدًا، بعنوانٍ وصفةٍ أكبر وأعمق من صفة (المراسل الحربيّ).

كانت مسيحيتي تستوقفني كلما يفوح التراب بالمقاتلين المحرومين دمًا ودمعًا وذلًا، فينقلبون عن بوصلة المحبة ويقتسمون الأشواك التي أدمت أقدامهم ويمضون إلى الربّ والأضرحة عسى أن يجدوا فرجًا ومخرجًا، كل هواتفهم المحمولة تحمل صورهم وصور أطفالهم وزوجاتهم وأهاليهم وهم يقفون أمام واجهات المراقد المقدسة ليوثقوا لحظات ما بعد طقوس الزيارة.

عبثًا كنت أحاول النوم على وسادة تعبي فيُحشر ليلي بجمع غفير من كوابيس غير محمودة، استيقظ كئيبًا وبي من التراتيل ما يكفي لرهبنتي أو دروشتي.

كان هناك ثمة من يطلب خفية حزّ رؤوسنا جميعًا على رؤوس الأشهاد، وكانت ملايين الدولارات تُدفعُ من أجل ذلك، وفي كل مرة كنتُ أطلب الموت بسلام، وثمة وجع على شكل تساؤل يتفرّع من دواخلي:

- يالهُ من ألم صريح أن تمر على ما لابدّ منهُ وأن تُتهم بما ليس فيك.

وسط هذا العذاب النفسي القاسي جاء فرج الربّ، وتهيأت لي الفرصة للمراجعة والتأمل، بعيدًا عن ضغط العزلة ومخاطر المواجهات المسلحة الدامية، حين تمّ تكليفي ورهط من الحشديين الفراتيين، بإخلاء ونقل الجرحى إلى مشفى خاص في النجف الأشرف، والإشراف على إسكانهم وإطعامهم ورعايتهم، فكان

ذلك مدعاةً لسروري.

هناك في النجف الأشرف، تحلّ على المرء سكينة رهيبة من جمال وصفاء نفسي عظيم، كنت سعيدًا، في انشغالي برعاية الجند الأبطال، كان لزامًا علي تأمين مسكنهم ومأكلهم حراسة ومتابعة أجنحتهم في المشافي، لم يأتِ ذلك بيسر قط، ففي كل خطوة معاناة من شكل ولون لم أتعود عليها، بسبب النظام الصارم المُتبع هناك، لم ادوّن أكثر من رؤوس أقلام بسيطة، فأوراقي ما زالت عذراء ولو شاءت لي الظروف ان اكتب لما اكتفيت إلا بأكثر من مجلد فالتفاصيل متشعبة، لكن خاطرا مر ببالي وانا أقوم على خدمة ورعاية الأبطال الذين محقوا الدواعش، كان ذلك الخاطر يتمثل بتوسلي إلى الله ان يوفقني لنيل شرفي الجرح والشهادة لأجبر كل الذين تحنّوا بدموعي على التحّني بدمائي يوما ما، كان الإحساس الدائم بالألم يقتلني ويدمرني رغم فترات الجوع والعطش، لكن ما سبق جوعي وعطشي تمثل بضراوة عزلتي التي أشابت قلبي قبل شعري، كنت متيقنًا وانا أتبحر في تقاطيع الجرحى وأتذكر ابتسامات وحكايات الشهداء الذين مضوا إننا نحتاج بالفعل إلى اكتمال كثير كي نؤدب النفس ونقتل في دواخلنا شهوة حب الدنيا والظهور.

كل شيء كان نظيفًا، منعشًا، بلوني الأبيض والأزرق السمائي، الأسرّة، الممرّات، الجدران، الوجوه.

أمور تضطرك لتبدو نظيفًا، متلمعًا، متخلصًا من تراب السواتر العالق في تفاصيل جسدك وبدلتك العسكرية، كانت دماء الجرحى والشهداء تطوف بين عيني مثل طفولة مختزنة على الألم، كان الحزن يوشح روحي وبدني ويكاد صداعه يهدني

كليـًا، ليس لي من شأن بيأس أو قنوط لكنني أحاول تجميل أيامي قدر المستطاع، هل كنت أشعر بالخوف؟ نعم كنت وما زلت امتلك مثل هذا الإحساس، فشعلة شجاعة المرء تنطوي على شيء من الضراعة فالخوف المبذول سلفًا هو خوف الحرص لا خوف الجُبن والرعب الذي يغدو رمادًا عند احتدام المعارك بمقاسات رغبة السلام خير من حرب، لا أجمل واعظم من الانتصارات، من اجل هذا توجب عليَّ خدمة الجُند الجرحى الغيارى، وبالفعل نجحت في ذلك إلى حدٍ بعيد ولم يدرِ بخلدي غير البكاء والذكريات وطبول المعارك، فاتكٌ هو الموت بين أطلال الذكريات وأنت ترى أجنحة الموت تتشحُ خلفك بكل ما هو نظيف، ومع ذلك كنت كلما حثثتُ خُطاي على السير إلى غابات الحرب المخيفة تخطت المسافات بالنور والخضار، كنت كثير الاتصال بقدوتي أبي حسنين، أسأله عن اخوة السلاح والتراب، فيجيب: في فرجة الحرب يا سنان، أدور على إخوتي وأبنائي مثل ناقة منقوعة بالحنين، أرفع رأسي أمام برية المسافات منفرجًا بالهواء الثقيل للحرب علّني أبصر تقاطيع وجوه الشهداء الموشحة بسُخام البارود في لحظات تساوي حُزنًا، ابحث عن ضحكاتهم العالية وهم يهزجون: السيد زامط واحنا اعله زماطه.

كنت أمازحه قائلًا:

- يعني شنووووو؟

فيردّ عليّ ضاحكًا:

- هسه بلله إحنا فلح وشروكية، شلون انفهمك بأهازيجنا ابن ام جورج.

أشاركه الضحك ولا أعرف معنىً لبعض المفردات، أعلم أن لهجات العراقيين

تختلف من بلدة لأخرى، يسألني عن بغداد والنجف وأحوال الناس أجيبه:

- الناس قلقة لكنها متيقنة من النصر.

يتلو عليّ آياتٍ من كتاب القرآن، تسكن روحي، يطلب مني تقبيل الجرحى، وزيارة أسرهم أو الاتصال بهم، للوقوف على احتياجاتهم، ثم ينثر في أذني توديعه الجميل قائلًا:

- دوّن كل شيء حين تختلي بنفسك يا سنان، كن كاتب وحي الحرب أخي الطيب، وأعلم أننا نموت وتبقى الكلمات بمسمى التوثيق، استودعك الله.

كانت تنتاب أبا حسنين والقادة الذين معه حالات من حزن لا يُخفى وغضب لا توصف حدوده، ليس لأجل أن يقال ما يكفي غرور النفس البشرية، لكن من أجل كل الذين ضحوا وجرحوا واستشهدوا، غضب حتى البكاء المُر، أيّ رجل أنت يا محمد علي بتلك الكينونة النابعة من أضلع الحياة التي اخترمتها الحروب؟

لا أعرف كيف أدون لك مشاعرك في الحرب، أنت الذي عشت تنادي قتلاها بحنينٍ أجوف؟ لم تكن الأيام بشافية لعدوى حبك، لهذا بتّ كثيرًا ما أراك تُطلق على كل الجثامين المقدسة للشهداء الذين سقطوا تحت إمرتك كلمات معطرة لأناشيد حماسية من عظامك وتُثير في وجوههم صراخك الذي تسميه (الثغيب) لينفجر من جوفك ثغيبًا حارًا، وأنا أراك تنحني على كل شهيد منهم، تناديه بالاسم، وأنت تُهيل على رأسك تُراب القرابين.

على قدر ما أفخر بك بطلًا منبثقًا من أزمنة حقيقية، على قدر ما أشفق عليك وأنا أجدك ممزق القلب والصدر، تبكي على الشهداء بمحابر ومدامع الأوجاع، وكلما أسند كتفك القوي معزيًا، كانت دموع عينك تخبرني:

- أجدني يا سنان بحاجة إليهم وإلى الوضوء بدمهم الشريف.

ثمة ما أثار استغرابي وأنا أدوّن تفاصيل سيرة الدم لهذا الرجل الشريف، وأن كل الأوقات التي انصرمت من حياته في مقارعة ومقاتلة البعث والأمريكان لم تزده إلا صلابة، فما الذي استجدّ حتى أصبح بقلب رقيق يشبه شفافية القارورة وهو يقود الشباب من أبناء الفتوى والمقاتلين الأقدم منهم بروحية الأب الحاني؟ يصول بهم بروح الأسود، ثم يذوب كما الوردة العطشى وهو يرى البعض منهم يذهبون في الغبار وفي التراب وفي الموت، وكلما استدارت الحرب بأسمائهم وخلت الأرض من ضحكاتهم وأهازيجهم وبطولاتهم لا يستطيع إحصاء ثنائه عليهم وهو يراهم يُورقون أشجارًا باسقة في جنائن الله.

في هذه المراحل الصعبة كافة، مراحل الأرشفة والتوثيق وحتى القتال والاشتباك مع العدو، وكلما يكاد جسدي يهوى متداعيًا أو منكسرًا إلى الأرض كانت يد السيد محمد علي أبي حسنين تنتشلني، بكل ما كان الرجل يحمل من حنكة وخبرة وسياسة تجعله يحرق أوراقـًا ليؤسس لورقة أو توجه آخر، كانت سرعة الأحداث وتداعياتها قد منحته بُعدًا لم يجعله يقف أمام محطة دون سواها طالما الهدف هو حماية الوطن.

تشرفتُ حقًا بالعمل تحت قيادته التي ألهمتني الشجاعة والصبر والنبل. كان ممن يؤمنون بفكرة ان تكون مُستهدفًا خير لك من أن تعيش جبانـًا منزويـًا، فالنوايا

الحسنة كفيلة لاحقـًا بكشف معادن الرجال، معهُ فقط أحببتُ عراقيتي.

كان من قلائل الرجال الذين يجعلونك تغادر محطة الانكسار والحزن، لتمتلك سرّ أن تتعامل مع مفردات وتفاصيل الحرب.

برزت تلك الأمور في معارك الثلاثة والعشرين يومًا في قطاع الأنبار رفقة قوات من جهاز مكافحة الإرهاب، أيام دامية لمعارك شرسة وعدو خبيث.

أسقطت فيها هيبة ذلك العدو، قبل أن تتحرك تلك القوات رفقة الكثير من الجيش والشرطة الاتحادية لاحتلال قاعدة بلد وسقوط بيجي وتكريت.

كانت وتائر الأيام تجري بسرعة رهيبة والجميع في سباق مرير مع الزمن بغية انقاذ ما يمكن إنقاذه من آفة وشرور داعش وهي ترتكب المجازر التي لا مثيل لها، كانت معركة آمرلي معركة صعبة في بداياتها حيث أُعلن عن انسحاب تكتيكي تلاه توجه قوى كثيرة ضاربة صوب مراكز قوى الدواعش، وبعد اشتباكات مريرة تحقق الانتصار في آمرلي وعادت البسمة لوجه الأهالي والصغار وهم يستقبلون المقاتلين بالهتافات، في تلك المعارك وفي محاور سامراء أيضا أفرز المقاتل العراقي نوعًا من أصالة ما كان أحد ليتوقعها، فمع التعتيم الإعلامي والتضليل والكلام عن انقسامات سياسية وما شاكل، حوّل المقاتلون المنضوون تحت مسميات الجهاد والمقاومة والحشد والجيش ومكافحة الارهاب والطيران، ذلك التضليل الى لوحة تآلف وتآزر ووحدة عراقية أنجزت النصر بالسواعد السُمر الفتية.

هناك توحدت الرؤى ونضح العرق وتلاقحت دماء الجراح بدماء الشهادة وخطف النصر المنجز فأصبحت مسميات الحشد الحوزي و(سرايا السلام)

و(العصائب) و(الكتائب) و(قوات بدر) و(جند الإمام) وصنوف الجيش والشرطة الاتحادية كافة تعمل وتحمل مسمى واحدًا هو (العراق)، في آمرلي شعر الجميع بفخر تحرير الناس والأرض والعرض من عبودية ووحشية (داعش).

غرف عمليات جادة وقادة مخلصون، ومقاتلون حملوا المنايا براحات أكفهم، ووجوه وأجساد صلبة كان لها جميعـًا لون التراب ولون الصحاري بظلال تمتد على نوافذ السيارات العسكرية والأرض المحروقة، وشموس حين تقوم عن تلك الأجساد، ينحني الليل الذي تعودوه سهرًا في ذروة الاشتباكات أو في التعبد او في اجترار ذكريات عوائلنا البعيدة حيث دموع النساء ومرح وصخب الصغار والنبض الدافئ لحياة السلاح، في اللحظات التي يهدأ فيها القتال، تطوف بي ذكريات التحرير كثيرًا ومنها ذكريات معارك (تأمين الطريق من جامعة تكريت إلى منطقة المزرعة والرجوع إلى (بلد) لتحقيق الانتصار تلو الانتصار ومن ثم العودة إلى (تكريت)).

في تلك الأيام أذهلني هذا الرجل وكثير من القادة الحشديين وهم يسيرون بلا دروع أو حمايات ويضعون الكثير من خطط القتال البديلة ويحفزون الشباب المقاتل على الصمود رغم قلة الذخيرة والطعام والشراب، فَرِحْتُ جدًا بهذا النوع من الرجال، مثلما فرحت بنجاح الخطط التي كانوا يضعونها ويقودون الجند فيها بأنفسهم، ومنها خطط المراحل الأخيرة لخطط النصر وخطط الالتفاف والخطط الميدانية واهتمامهم الكبير بسلامة وطمأنة المواطنين المحاصرين هناك خصوصا القرى السليبة، كل تلك المعارك لم تُصب أولئك الرجال القادة بالعُجب، بل طوقتهم بالتواضع وبمخافة الله.

ما أدهشني حقًا، أن قرار صيانة النفس عن الأهواء لم يكن من صفات أبي حسنين وحده كمقاتل حشدي، بل شمل جميع المقاتلين القادة، على الرغم من عدم معرفة البعض منهم بالبعض الآخر، الدهشة أن منهجية السلوك القتالي أو القيادي الإنساني كان واحدًا ومتشابهًا لديهم، وحين سألت أبا حسنين عن تلك المسألة الغريبة عليَّ، أجابني:

- لا غرابة في الأمر، إنها العقيدة والإيمان بشرعية ما تُقاتل من أجله.

أجبته:

- تبدو سعيدًا؟ -قال-

- نعم أنا سعيد جدًا، وستكتمل سعادتي بتحقيق النصر الشامل أو نيل الشهادة.

- أجبته بحب:

- عدني أن نكون معًا حتى تحقيق النصر، أمنيتي أن تقرأ ما سأكتبهُ عنك وعن الحشد وعن النصر.

قال:

- أكتب بضمير يا سنان، أنا لا شيء يخامرني هذه الأيام أكثر من تحقيق النصر الشامل أو الرقود شهيدًا في حفرة قبر واحد وأخير، أتمنى أن يكون نافذتي على الآخرة.

طلب مني إحضار قلم ودفتر المذكرات التي أوثق فيه تفاصيل الحياة في ظل الحرب ضد الدواعش، وحين ناولتهما له كتب على وجه الصفحة الفارغة:

(بسمه تعالى ...وصيتي، كل تعبي ومكابدتي ومعاناتي وانكساراتي في الحياة الدنيا إنما هي في ذمّة العراق والتاريخ، مثلما هي في عين الله).

قبلته، وأنا أشمّ فيه رائحة تُرابٍ مُملّح، ابتعدت عنهُ، انزويتُ جالسًا تحت ظل عجلة معطوبة، أطلقتُ سراح دموعي، غير مستوعب أو متقبل لفكرة أن تُفقدني تلك الحرب القذرة رجلًا وأخًا بهذا القدر من الاكتمال.

في الليل كتب لي رسالة الكترونية كتب فيها:

عزيزي سنان...

(الحرب امرأة وضيعة، وأنا أغلقتُ مداراتي كلها على الدواعش الأنذال، أنا وحقدي بالمرصاد لهم خفية وبالعلن، أصابتني نذالتهم بالحزن والتأسي على روح الشر الكامنة في الأنسان، من يدق على تعب أحزاني كلما فقدت أحدًا من أبنائي الجُند وأنا أراهم يصيحون بالأعداء أن هلموا لقتال أعزل، كنت ولّما أزل أُعوّلُ كثيرا على فتيتي بمرارة من يرى نهايات مشاهد الحرب الموجعة).

كتبتُ له:

- أين أنت سيدنا؟

أجابني

- أقود كمينًا للإغارة على هدف مخابراتي للدواعش.

كتبت له:

- لِمَ لَمْ تصحبني معك؟

كتب لي قبل أن يغلق هاتفه لساعات طِوال:

- وجدتك حزينًا، متعبًا، فأعفيتك من المهمة، سأكتب لك التفاصيل إن بقيت لنا حياة.

نجحت العملية في ساعتين، وتكفل بكتابة ملخص تفاصليها التي أسفرت عن جريحين من صفوفنا.

في تلك الفترة كان الجرحى يعودون إلى الديار موشحين بنياشين مدية الحرب، يعودون حزانى من السواتر المشتعلة ومن خطوط المواجهة ومن نقاط الالتحام ومن دوائر الموت، يعودون إلى الثكنات والى الديار وقد نحتتهم الحرب من عُريّ طينهم وقد كحّلَ أعينهم التُراب.

كنتُ أُمجّد الجُند قبل وبعد إصاباتهم واستشهادهم وهم يحولون العدو إلى جثث هاتفين بثقة مرحة:

- إلا طحين!

كانت مفردة شعبية يطلقها البسطاء من الجند، دلالة طحن وعجن وسحق العدو، كنت أضحك من القلب لمرحهم داخل ساحات الموت والرعب، كان

ضحكي يعني فهمي لهم ولمفرداتهم الشعبية، كانوا يطلبون مني تلفظ مفردة (إلا طحين) فأنطقها بلكنة كردية (إلا طَحين) كان فتحي للطّاء الذي يكسرونه أو يبتدئونه بألف غير مهمزة، يبعث فيهم نوبات من ضحك بريء ينتهي باحتضاني أو دغدغتي أو تقبيلي، وهو ما لا يقبله عنهم أبو حسنين لكيلا أشعر باختلافي عنهم.

كان قبولي لمزاحهم وعدم تحسسي منه، مفتاحاً لعافيتهم واستقرارهم النفسي، أما شجاعتهم وقدحة ذروة انطلاقاتهم إلى ساحات الرفعة والشرف غير هيّابين للحر وللشمس وللبرد وللمطر وللحجر وللتعرق الشديد، فكان مدعاة افتخاري بهم فتية يحبون الحياة ولا يهابون الموت.

الفكرة التي غرسها فيهم قائدهم أبو حسنين وجعلها مسيطرة عليهم تتمثل بالعمل لأن يكونوا نافعين، على الرغم من غيوم النار المسيطرة على مشاهد الحرب حولنا وقريبا منّا، وجدته يسعى لجعلهم يصدقون بطهر نواياهم ليشدّ أزرهم وهم يصولون لاجتثاث الدواعش وأمراض كراهيتهم، فيسيحون في لظى النيران وأزيز الرصاص دون مخابئ تحمي ظهورهم، كل الطرق الوعرة احتلت أحلامهم ورفعتهم إلى طرقات الجنة الناعمة، أيامها كان القتلة اليائسون يطلقون صراخًا آليًا وقد عُصبت أعينهم بدم الموت معبرة عن وضوح رعونتهم، وكان من حجارة أمنيات أبي حسنين أن يجعل جنده في اللحظات كلها على أهبة الاستعداد لتتبع خطى هؤلاء الصعاليك القذرين وهي ترنُ على صفيح الذاكرة لمجالدتهم تارة بالصبر وتارة بالنيران، فلم يك من المستغرب أن يصول بجنده ضد داعش في أوقات ذروة الظهيرة للقيظ اللاهب! كان اعوجاج نوايا وسلوكيات تنظيم داعش على الجبهات كافة يعود إلى اعوجاج حواسهم والعراقيون يعلبونهم في كراتين شهواتهم وكراهيتهم قتلى غير

مأسوف عليهم، كل القطعات بمقاتليها الشجعان كانوا ساخطين عليهم، لهذا كانت غربانهم وجرذانهم تحترق بنيران أسلحتنا، وكنا كلما هيمن الليل وأطبقت أستاره السوداء علينا رفعنا أطراف عظامنا وأدخلنا أنفسنا في يقظة لا نوم فيها مخافة ان نسهو فنُقتل، أما في صفاء سكينة المعارك فكنا نتصفحُ وجوهنا المُتربة ونقرأ ملامح النصر، كنا حين نتذكر الشهداء الأحبة في لحظات الغروب، يتحول لون قميص السماء من الأزرق إلى الأحمر فينمو الموت ويملأ بنا أشرعته الضاربة ويملا أنفسنا حُزنـًا، كانت الأيام تسجل لنا في تعاقبها الصعب زمنـًا تستحيل حركته إلى بهاء عجيب ونحن نرى أجساد الدواعش تنحني وتسحق كسيرة ذليلة أو متبعثرة بفناء الميتات البشعة.

كانت المعارك تُصب ذكورتنا ورجولتنا في الطين والتراب، وكنا اذا ما جدّ جد القتال نتيقنُ أننا لسنا حجرًا محرمـًا لكننا نمتلك اذرعًا من فولاذ وقلوبًا من حرير.

كانت ملامح وجوه الدواعش مفرغة من نبض الحياة، مجللة بالعار والرعب والخوف والموت، كانت دماؤنا تتكسر بلهيب الغيرة ويتجدد خصامها فتتولد صرخات الغضب في أردية بدلاتنا المرقطة، وكان الليل رؤوفـًا بنا فهو يصنعُ لنا كعبتهُ، ويضع الدواعش كمائنه المميتة، كانت خطانا خطوة وحل وخطوة تراب، طرقاتنا مملوءة بصدى الموت، تسهرُ أحمالنا على ظهورنا فلا شيء أسمى من الحيطة والحذر حتى إذا ما وصلنا، توزعت الدماء على خطانا وتوزع الخوف على وجوههم لنستزيد من خوفهم وخطاياهم فنضربهم ونضرب صميم غفلتهم فيقوم الغُبار ولا تنجلي غُبرة المعارك إلا على أجسادهم الممزقة وهي تملأ الأرض الحرام، كنا في احتدام المعارك نشعر أن الأرض تتطابق مع السماء بينما الرصاص يقتصّ بعضه بعضًا،

الرمل والحجر والتراب كله يشتعل، وكنا نسندُ بعضنا البعض ولكن ما تجمعهُ الألفة تحصدهُ الحرب، الرصاصة تقطع الشريان وتحجرهُ لكنها لا تستوفي الحنان ولا الحنين كنا ننكر الخيانات ونتنكر لها فنقطف الانتصارات بحثـًا عن سلام بات غابراً.

أما عندما نعود منتصرين نجد أنفسنا قد توشحت بأناشيد تتشقق عن جانبيها الرؤى، وكان الجريح فينا يرفع وجههُ بالحزن كله وهو يتطلع إلى أطرافه المقطوعة أو أشلاءه الممزقة.

في إحدى إجازاته القصيرة كلفني أبو حسنين لزيارة الجرحى في مشافيهم داخل محافظة النجف الأشرف، احتضنهم، قبّلتُ ما بين أعينهم، وجدتهم يخطّونَ في دموعهم أكثر مما يخطونَ في ردهات المشافي، وجدتُ أعينهم المُجهدة من الآلام والسهر والتعب مثل قلوبهم لا تنام لأنها محملة بأعباء الحرب، شعرتُ كما لو أن حفيف ثياب أمهاتهم يجول في آذانهم، لهذا كانوا يطلبون أجوبة لأسئلتهم، كل جريح ينال الشهادة يهتف في أعماقه، فيرفع السيد يديه قانتًا:

- اللهُمّ اشمله برحمتك، احضنه بأياديك الرحيمة يا ربّ العامين.

يدور على الجرحى كما لو كان والدًا لهم، يهدهدهم ليرتاحوا، وما ان تغفو أعينهم على أضواء باهرة تنبثق منها أشكال الحور العين حتى يرتكبون خواتيمهم بالمصائر المشرفة للمعارك والمواجهات، تلك هي المحصلة أيتها الحرب، عطش وجوع وموت.

أتلمس سجاياه أبـــًا معذبـــًا بدماء أبناءه الجُند، كان كلما يرى بندقية منتصبة ما بين شقٍ وشق وهي تعود لشهيد مات ميتة مشرفة، يهتف بصوت عالٍ:

- البنادق تبقى منتصبة لأن أرواح الشهداء تتلبس في دواخلها.

كان في كل معركة تسفر عن عدد ليس في حساباته من الشهداء الضحايا، يضع لكل شيء نظامـًا ثقيلاً يجفّ تحت وطأة سماء الحرب الهرمة.

كنا نراه صبيحة اليوم الثاني يتوكل على الله قائداً لقوة العمليات الخاصة، يعين أسماءً لمقاتلين أشداء، يتقدم صوب أخطر المناطق العصية، ليخوض معارك شرسة طويلة، يفرض على تلك المناطق المكتظة بالدواعش ومراكز قياداتها هناك حصارًا طويلاً، كان يطلق عليه (أسلوب الخنق) ولا يعود إلا بعد أن يصيبهم بمقتلة كبيرة، على الرغم من كونه يعرف مسبقـًا أن غريمه كان يشكل إسمًا ورقمًا صعبين للغاية، لا لشيء إلا ليدخل الفرح على أرواح الشهداء ويكسر شوكة أعدائهم، ويزيد المرابطين إصرارًا ويقينـًا بقطف النصر.

أرسل لي مرة بعد نصر مبين تحقق عقب تضحيات كثيرة وقعت في صفوف مقاتلينا جرحى وشهداء:

(كنت أتمنى يا سنان، لو اننا كنا معـًا، نرى كيف أن الجند يمتطون صهوات نداءات شد العزم ويشدّ بعضهم أزر البعض الآخر، وكيف أن رصاص وشظايا الحرب تتقاسم مع الجند انتعاشة حياتهم).

كان فخورًا برفقته لأولئك الجند الأسود، كان كلما يصول معهم على الدواعش يرتدي الظلام سترًا، ويأمرهم فعل الشيء نفسه، كانوا يخنقون صدى صوت الرصاص كي يوهموا الأعداء أنهم بعيدون عنهم، لذلك كان هؤلاء ينخدعون، فكلما يقتربون يسقطون في فخاخ النيران الحشدية وينتهي بهم الأمر الى الموت،

كانت الريح تكنس لحاهم القذرة مثل زبل مهمل، لم يشرع السيد أبو حسنين ونحن من خلفه ظهره يومًا لمعركة، لهذا كنا ننتصر في كل مواجهة وننظر بفخر إلى زحمة أشلائهم، الذين تدرعوا مع السيد بالصبر كانوا أبطالًا جنوبيين وفراتيين ممن عُرف عنهم أنهم يقاتلون بجلادة، أمّا الذين خلعوا العزيمة فكانوا يركبون مسطحات الفرار ويتباكون بشكل مخجل وهم يحسبون أن شجاعة الانسحاب خير من رعونة المقاومة غير المجدية.

كان هذا هو الفرق بين فتية الحشد وبين جند الشيطان من الداعشيين الخنازير، أما الشهداء فكانوا يمضون بسعادة ورغبة عارمة، وكانت الحرب كلما تطحن مقاتلًا منا وتطفئ ضوءه كان الله يهبه نورًا يسعى بين يديه بلا نفاذ، في المعارك الكثيرة التي خضناها تحت قيادة السيد أبي حسنين، كنتُ ألاحظ بعين الموثق أن الدواعش يتخذون من مغاراتهم وخنادقهم قبورًا لهم وهم يقاتلون الحياة من بقايا ألمهم وجبنهم على الرغم من كونهم كانوا يشتهون دماءنا، لكننا كنا نوردهم الهلاك، أما شهدائنا الأبطال فكانوا نجوم متلألئة تكسر حدود الآفاق بضيائها البهي، كانت أقباس نخوتهم تضيء ظلمة ليل المعارك، أما أصوات غيرتهم فكانت تدوي في الاتجاهات كلها من بين أزيز الرصاص وأصوات القاذفات والصواريخ، فصول طويلة بأيامها ولياليها كانت فيها ساحات المعارك ذا شهية شرهة تكاد تلف الجميع بعباءة الموت، الهواء الغامض للمعارك وهو يوصل روائح الحرائق والبارود وكان يشعرني بمرارة وظمأ في فمي، ورغم ذلك كنت أنصهر في شجاعة ذلك الرجل وجنده الأبطال.

أبصرهم لا يتوانون عن القتال كما لو أنهم أقسموا على الشهادة فأقفل كل واحد منهم أصابعه على زناد بندقيته كما لو كان يحتضن طفلًا.

كثيرًا ما كنا نشمّ التراب ونقبلّه دون أن نخطط لشيء، كان الحنين والحب يشدنا إلى هذا التراب، تيقنت أن كل مقاتل حشدي شجاع ممن هو بمعية أبي حسنين كان يُدخل الرعب على الأعداء ولا يُفشي أسرار الإجهاد الذي يشعر به، فيتقدم إلى النصر والى الموت برضىً تام.

صحيح أن المعارك لا تورثُ غير الحزن ولا تمنح غير الظمأ، لكنها مع ذلك كانت تمنحنا قطرات قليلة في زمن قصير نستردّ به الأنفاس عن طريق الأهازيج التي كانت تشدّ العزائم، كانت نيرانا وهي تعالج بشاعات الخراب الداعشي وهم يباغتوننا ويشدّون علينا، كنا نبتهل إلى الله ليحرسنا من الغدر، الحقيقة التي دونتها بالحبر الأحمر هي أننا في مرات قليلة نقاتل الدواعش بينما منابع ذاكرتنا تسافر الى بيوتنا الآمنة حيث الصغار والأحبة، كانت قلوبنا الرحيمة تتمنى على الله أن يفتح بصائر البشرية لجرائم هذا العدو البشعة وفداحة هذه الحرب التي أحرقت الملايين بلظاها وتسببت لشعبنا بالويلات والكوارث، وخطفت الكثير من الأرواح والدماء.

كان أبو حسنين يشحذ همم المقاتلين ويطلب منهم الابتهال إلى الله والتمني عليه من أجل أن يوقظ هذه الضمائر كي توصل خطأ فكرة هذا الجهاد الملعون، الخارج عن حدود قداسة الفتاوى والقوانين الإنسانية، وان نوصل لكل المغرّر بهم حتى درجة الخداع التي هم عليها، بعد أن التهمت الحرب معظمهم وفتكت بهم نيرانها المدمرة.

بعد الحصار الطويل الذي فُرض عليهم تقصّدَ أبو حسنين ورهط من قادة يشابهونه في الإقدام والسَمار أن يقودوا بداية كل عملية جديدة الخطوط الأولى ليلاً، حدث هذا مرّات عدّة، خصوصًا بعد انتهاء الهجومين الأخيرين، والتهيؤ للإعداد لمعركة الحسم الثالثة في قاطع (القادسية).

كان من طبيعتي مرافقة أبي حسنين في عملياته كافة، كان ذلك يزيد من إرهاقي وتوتري، كان من طبيعة أبي حسنين أنه من نوع الرجال الذين تتجدد حيويتهم بتجدد الأحداث والوقائع، وانفجارها كواقع حال في لحظات تبدو خارج نطاق الشقاء والجهد المبذول.

للأسف كانت طبيعتي الجسمانية على العكس من ذلك، كنت سريع العطب، سريع الإحساس بالإرهاق وهو ينخر الروح والجسد كما الأرضة، كان القاطع الأخير في تكريت كبيرًا، خطيرًا، مكتظًا، عسيرًا، واسعًا، لا يتأثر مطلقًا بقصف الطائرات ولا بالهاونات الكثيرة التي أنزلها الحشد عليهم كالمطر، عرفت من كمّ المعلومات والملاحظات التي طرحها الجهد الهندسي والاستخباري على أبي حسنين وأحد القادة الحشديين من فصائل المقاومة وضابط برتبة كبيرة لأحد القوات المرابطة، أن خطورة هذا القاطع كانت تتمثل بعدم وجود محور حربي فيه، إضافة لعدم وجود طريق لخط انسحاب تكتيكي أو مفاصل للمناورة، الأمر الذي جعل الدواعش يستحكمون نقاط قوة قواتهم وقياداتهم وقناصيهم، فكانوا يقاتلون قتالاً شرسًا بخطة (كسر العظم) التي توجبّ عدم الانسحاب البتّة، والذي لا يُحقق نصرًا في هذا القاطع الذي مثل للدواعش حصنًا منيعًا فإنه مهزوم لا محالة.

لقد أثارت مشاركة السيد أبي حسنين بنصف قوة عدد مقاتليه بالهجومين الأخيرين، مخاوفي وتحفظي لأمر حسبته بشبه المغامرة الطائشة، وهو يعدّ العدّة استعدادًا للدخول في صفحة الهجوم الثالث.

حين صارحته بحقيقة مشاعري وطلبت منه انتظار المدد العسكري أو الحشديّ لزيادة الدعم، قرأتُ في عينيه غضبًا وزعلًا، ووجدته يقول لي:

- خذ إجازة وانزل الى بغداد لترتاح يا سنان.

اعتذرت منه، وأخبرته برغبتي في مرافقته في تفاصيل هذا الهجوم المرتقب، فما كان منه إلا أن منعني بقوة من خوض تجربة الاشتراك مؤرشفًا لهذه المعركة الفاصلة، سألته ما إن كان قد حمل عني فكرة مغايرة، أجابني بحب:

- عليك أن تعلم يا سنان، إنك لست المراسل الحربيّ الوحيد ها هنا، كنتم أربعة، استشهد اثنان منكم، وأريد أن احتفظ بالإثنين الآخرين.

كانت رغبته عارمة، تمثلت بتحريره لهذا القاطع بالكامل مهما كانت النتائج، في هذا المكان بالذات كان الداعشيون من جنسيات عدّة من الذين يمكن تشبيههم بالحيوانات المتوحشة.

المعلومات التي طرحها الجهد الاستخباري كانت تقول عنهم، إنهم من المجاميع الخاصة التي لا تعرف غير لغة الدم، هم ليسوا من نوعية المقاتلين الحقيقيين بالمعنى الحقيقي لكلمة مقاتل، بل كانوا أهل غدر يفتكون بكل من يقع تحت رحمة قبضاتهم حتى لو كان إنسانـًا أعزلًا، كانوا يبثون عبر مواقعهم الالكترونية كيف أنهم كانوا يذبحون الأسير ويشربون من دمه، أو يخرجون أحشائه ويقطعونها بأسنانهم، وهم يطلقون أصواتًا منكرة، تشبه عواء الضباع حين تشم رائحة الدماء، بينما كانوا يكتفون أغلب الأحيان داخل ساحات المعارك للدفاع عن أنفسهم أمام فكّ الموت وهو يطبق عليهم وعلى أجسادهم النتنة، كل الذين اشتبكوا معهم قالوا:

-لم نكن نستخدم أسلحتنا ضد مجاميع بشرية بل كانوا بشرًا بهيئة وحوش كاسرة، مقززة الشكل، بحراب وسيوف ومسدسات كاتمة وبنادق قناصة وجدائل

مغبرة يتعقبون أماكن تواجد الآمنين ليفتكوا بهم، وقد هيمنت الوحشية على سلوكياتهم فصيرتهم كائنات قبيحة، سفّاكي دماء من طراز لم تشهد له البشرية مثيلاً.

كانت وحشيتهم تضاعف من همة أبطال الحشد وتطور من قابلياته على مقاتلتهم والفتك بهم، كان المقاتلون يشعرون بظمأ كبير إلى نهر الحياة وحلاوة عيشها بأمن وسلام، وذلك لم يك ليتحقق بغير مقاتلة هؤلاء القتلة.

قتلة يفتكون بمن يقع بين مخالبهم، لا بقتال، بل كانوا يبدرون الهلاك من أجل أنفسهم، من أجل إدخال الرعب على الآخرين، من أجل وصولهم الى حياة أخروية زيَّفها لهم أباطرة فتاوى التكفير، لهذا كانوا يقطعون الرؤوس والأيدي والأرجل، يشربون دماء الضحايا، يأكلون الأعضاء البشرية، يحرقون ويغرقون الناس أحياءً، يهتكون الأرض والعرض والحرث والضرع والنسل، يفجّرون ويهدمون كل جمال على سطح الأرض.

كل هذه المعلومات استعرضها علينا أبو حسنين، ثم قال بحزم:

- إنّ للقتال معهم نكهة خاصة، عندما يتقابل الحق مع الباطل والجمال مع القبح والإنسانية مع الوحشية، يكون للاستشهاد طعم مُميّز.

سأل الجميع إن كان فيهم ثمة مريض أو متعب، أو ممن يهزه الشوق للدعة والراحة ورؤية زوجته وأطفاله وأمه وأبيه وأخوته، لم ينطق أحد بشيء البتّة.

كانت شفاه الجميع مبيضة، مُزرقّة، بينما الأفواه تتسع وتنفتح على آخرها، والأسنان تبرز وقد خالطتها الدماء والأتربة، كانت لحوم الجميع ذائبة، مشقّقة،

وبعضها مشوهٌ بالكامل، بينما عظام الوجنات والجباه وتضاريس بعض الوجوه، تبرز فتسيل منها الدماء، أمّا الأعين فتكاد تغور داخل محاجرها.

الكثير منا ممّن غادورنا الى المشافي أو إلى آخرة الأبدية، تركوا فراغهم القاتل وجدانيًا في دواخلنا، كم كان يجدر بهذا العالم الصامت أن يطوف بجثث ورؤوس الأبرياء العُزّل من شعبنا ليصيح بالضمائر الحية (هذا هو حصاد الدواعش) كنا نتلمس نسائم الصباح رغم دخانيتهم بأعيننا ورئاتنا بأصوات تنفس لم نمارسها من قبل كأننا نستجدي الحياة، وكنا نجد في ظلام وهواء السواتر مخرجًا ننفّس به عن الكرب والدفع النفسي الذي كان يلازمنا بسبب ضغوطات المعارك المتلاحقة.

كانت رؤوس أبطال الحشد قادحة بالصحو وأطرافهم تدب بنشاط غريب، بينما تتصالب أجسادهم وتقوى وأنفاسهم تصعد وتنزل بلهفة وشغف، ليلهم حافل بحياة وتفاصيل الحيطة والحذر، وعندما كان الجوع يهرسهم، كان نزغ الحياة أكثر من إحساسهم بالجوع وحاجتهم الى الماء والخبز، كانت صور البيوت والعوائل والأطفال والشوارع والحدائق والأماكن العامة والأضرحة المقدسة تطوف بذاكرتهم فيشعرون بالحافز العجيب الذي يجبرهم على المحافظة على كل تلك الأشياء الحميمة عن طريق مطاردتهم للفلول الداعشية، لهذا كثيرًا ما كانوا يغذّون السير ويركضون غير عابئين بأزيز الرصاص القنّاص ولا بقصف الأسلحة الثقيلة وهو يصرخ فيهم من بعيد فلا يعيرونه اهتمامًا.

كان هذا يمثل جوعهم المقدس إلى نبض الحياة السلمية التي يحاول الدواعش انتزاعها منهم بدعاوى التكفير، صحيح أنَّ لوقع الموت إحساس جلل قد يُضعف

الهمم، لكنهم كانوا يستمرون بالمضي قُدمًا بين النيران ومخالب الموت، حتى القتال الأعزل مع هذه الكائنات الوحشية كان عظيمـًا، فالحشديون أصحاب أرض مغتصبة ولم يكونوا بالغازين ولا بالمتخلفين عن ركب الشجعان وركب الشهادة.

هم رجال يُحبون وطنهم بالقدر الذي كانوا يُرخّصون فيه الحياة، وكانوا يواجهون مصاعب المعارك بقلوب عامرة بالإيمان.

وجدتهم وهم في قمة التلاحم يُميّزون الصحيح من الزائف خارج وداخل أسوار المعارك، كانت الحرب كفيلة برفع أغشية الوهم عن أعينهم، ففيها تتجلّى الحقائق واضحة، إذ يجدون أنفسهم في وحشةٍ لا تُوصف وهُم يُحاولون الدفاع عن نسغ ونبض الحياة مع كثافة الصور المروّعة، لم يكن بمقدورهم التراجع، بل كان لابدّ لهم من الاستمرار بالمسير حتى نهاية الخط وحدهم، ليس معهم أو لنا إلا الله.

كان السيد أبو حسنين، ينعش ذاكرتي وهو يحثني على التوثيق والأرشفة، ويتابعني خطوة بخطوة، بكل ما من شأنه تحفيزي وتنشيط مزاجي الذي استنفذته المعارك.

قال لي يومًا:

- أخي سنان اعلم أن كل المُتدنيَات تنهار وسط شراسة المعارك، كلما سقط أحد المقاتلين شهيدًا بيننا. -أجبته-
- أجل سيدنا، إن لك حزن الأمهات تجاه الشهداء.

ردّ بحزن:

- نعم يا سنان، ذلك لأننا نشعر أبدًا إننا الأجدر بالحياة وإنهم الأجدر

بالشهادة، ذلك فضلهم علينا، وتلك ميزتهم عنّا.

رأيتهُ يشيح بوجهه عني، مغالبًا دموعه التي تساقطت سريعًا، قبل أن يسترسل بحزن:

- في الميادين المشتعلة والخنادق الحافلة بكل الصور المؤلمة، لا عاصم لأحد من الموت المحيط بنا يا سنان، فساحات المعارك أشبه ما تكون بحدٍّ اختياريٍ كبير، يتوقع فيه المقاتل المجاهد كل المفاجئات وعلى رأسها الموت بيسر وخفة، لذلك كان علينا أن نتمتع بالجلادة والصبر ونحن نتوحد مع التراب وقسوة ومتطلبات الطبيعة، أو ونحن نتموضع لساعات طويلة داخل المواقع الشقيّة وخلف السواتر وتحت مرمى بصر القنّاصة والأسلحة الفتّاكة الأخرى، صبورون قلقون، بينما حظوظنا في الحياة تتأرجح فوق رؤوسنا مثل لحظة حلم وامضة، إذ يصلنا أزيز الرصاص وشظايا القصف وكل ما نستطيع فعله بغريزة حب الحياة.

سألته بخجل:

- هل تأخذ منّا موقفًا نحن المراسلين والمُوّثقِين ونحن نتمايل يمينـًا وشمالاً أو ونحن ننبطح أرضًا مُكَوّرين ومُنكمشِينَ على أنفسنا، كوننا لا نملك خبرة المقاتلين وصلابة قلوبهم.

قال بحكمة:

- لا لا يا سنان، كيف أتخذ منكم موقفًا؟! في المعارك لا أحد يعرف على من يأتي دور مغادرة أرض المعركة جريحـًا أو شهيدًا، لا أحد يرى في جبهته

متى تستقرّ رصاصة القنّاص أو تحت أي قلب حار بالمحبة نابض بالحياة ستستقرّ الشظايا المتطايرة.

بعد هذا اللقاء القصير، كتبت في مذكرتي:

(على منوال الحرب، تصبح اللامبالاة والسخرية من الخوف والموت ديدنـًا للمقاتلين، ويصبح القلب الميت صفة ملازمة لكل مقاتل شجاع، وحده القدر المؤجل أو ما يُسمى بالحظ، هو حدك الفاصل بين البقاء والمغادرة، الحياة أو الموت).

في صبيحة ساكنة، اجتمع أبو حسنين بنا جميعًا، استرسل قائلًا:

إن من يتهيب الموت في سوح الوغى توجب عليه وقائع الحرب المغادرة، فقد تتمزق وتتلاشى وأنت محصن بالحجر والفولاذ، وقد تطاول في المعارك ولا تصاب بخدش بسيط، وأنت تدير قدرك من مكان وظهر مكشوفين، كل المعارك كبيرة ومهولة، وقد تمتد لساعات أو تستمر لأيام متتالية. أحبتي وحده القدر المؤجل من يحسم أمرك في كل مرة مشفوعًا بإرادتك، كل ما فيها مميت، دمارها الشامل، ألغامها الغادرة، أزيز رصاصها، رصاص قناصيها، قذائفها، راجماتها، هاوناتها، قنابلها اليدوية، حرابها، بنادقها، مصفحاتها، بيوتها المفخخة.

ذكرني كلامه بالصور الحربية وهي تنطوي على ما هو مهول، الأجساد والوجوه المغمورة بالتراب، الأوحال والثلوج والدخان، الأفكار والعقول الذاهلة، القوى الخائرة، الأعصاب المحطمة، العيون المتقرحة، الأصابع والأكف والأرجل المدماة، شحة الطعام والعطش المميت، صراخ، ركض، قذائف، رصاص، جرحى، قتلى، إعياء، إغماء، إحتماء، رجال أحياء بلا أطراف، رؤوس مهشمة أو مفلوقة، أحشاء

وافخاذ مهشمة وممزقة، أمعاء ومصارين مندلقة، تفاصيل مشوهة، أذرع مقطوعة، شمس تغرب بحزن، ليل يهبط بقسوة، محملاً بدمار ومحق جديدين لصور أخرى أشدّ وحشية وقسوة، أشلاء تتبعثر، أرواح تُزهق، أنفس تغادر الميدان الى جادتين، جادة الحق وجادة الباطل.

في أوضاع صعبة مثل هذه، قد ترتفع معنويات البعض وتنهار معنويات البعض الآخر -كما اعتقد السيد أبو حسنين عني- فهناك الحياة، الموت، النجاة، الإجازات، الزوجات، الأطفال، الأهل، الأصدقاء، الأمهات والآباء المرضى، العواطف المؤجلة والأخرى المؤججة، الفقر، الكدح، الانغماس في مشاغل الحياة، الأشياء الحميمة الخاصة بالإنسان الفرد، الدنيا، الآخرة، الله.

بالمقارنة بين حياة السلم وحياة الحرب قد يتحطم الإنسان ويُسحق إذا ما صار يعقد المقارنات بين ما هو سلمي أو ما هو حربي.

الحرب قطعًا لا تترك الإنسان ينتمي الى لوحة الحياة الجميلة، الساكنة، الناعمة.

ثمة أغراب يتنازعون على أرض غريبة دفاعًا عن متبنيات يحملها كل منهما في صراع الغالب والمغلوب، لهذا يتعب من يُلقي الأسئلة الكثيرة عن جدوى أو لا جدوى الحرب، لكن من السهل على المقاتل المجاهد أن يفرز ما هو حق وما هو باطل.

تحت قسوة نيران المعارك تصبح التنظيرات محل سخرية وأنت ترى رفاقك من حولك يتساقطون جرحى وقتلى، مبتسمين يلقنون الجميع درسًا زبدته أن الدفاع عن الوطن والآخرين هو من أسمى معاني الحياة.

في النسيج المجتمعي يستمع الإنسان إلى لحن خلوده والى صوت تنفس

الحياة، أما في الميدان فليس سوى صفير الشظايا وأزيز الرصاص فوق الرؤوس والحفر والملاجئ والمواضع الشقية، وجرحى وقتلى يحملون على النقالات ورجال يتقاسمون زوايا الأرض والملاجئ وهم ينتظرون النصر أو الموت، مختلفين عسيرين فيما يتعلق بإراداتهم الصلبة.

الأحوال في ميادين المعارك، تجعل الجميع يُدافع عمّا يعتقدُ صوابه، هناك الصامدون، وهناك المغرورون المزهوون بأنفسهم، وهناك من يعتقد بصواب نظرته ومعرفته بحقائق الأمور، وبين من يُسرف بتبسيط وتكييّف ما يراه كافيـاً لقهر عدوه.

مع اقتراب معركة الحسم، ونهاية كتابة فصول العناء، تنبهت أن السيد أبا حسنين، كان قد اختزن تلك الصور والأفكار التي اجتاحت الجميع وأولها عقله ووجدانه، بعد أن اجتاحته وملأت نفسه بها، بعد الانتصارين الصعبين الأخيرين، ولومه لي لأنني بعد إحساسه بتعبي الذي حسبه ترددًا.

وجدته قبل يوم من المعركة الأخيرة يعتذر مني بما يشبه الملاطفة، هو يعرفني جيدًا، ويثق بي تمامًا، ويعرف مقدار حبي له وتعلقي به وقد اقترنت الأفكار التي بذروها بداخلي، بعقلي وقلبي ووجداني، حتى بتُّ احترم وجهات نظره، واحترم ذلك البعد الذي يتمتع به وهو يغمرني بإنسانيته.

وجدته ليلاً، يسلمني ورقة مطوية، ويأمرني أن أذهب لنوبة حراستي، على أن أقرأها في الصباح الباكر، في الصباح الباكر وجدته يقود مجموعة كبيرة من الفصائل، دون أن يخبرني بمرافقته على غير العادة، ابتعدت فصائله بمركباتها ومقاتليها الراجلين وهم يصدحون بالأناشيد، بينما الأعلام ترفرف فوق رؤوسهم، عدت إلى ملجأي،

فتحت الورقة المطوية وطفقت أقرأ سطورها:

(بسمه تعالى...

عزيزي سنان، كنت خير أخ وصديق ورفيق حرب طاحن، تركتُ لك داخل أحد أدراجي، مفكرة أصغر من مفكرتك، دونت لك فيها العديد من الآراء والانطباعات والمذكرات البسيطة التي لا تمتلك إلا صدقها، أنا الآن وبعد أن نجحت بفتح محورين بقاطع القادسية العصيب، ها إنا استعد بعد التوكل على الله لمحاولة فتح المحور الثالث بغية تخفيف الضغط على المحورين المحررين، أوصيك في حالة استشهادي أن تضيف قصة الاستشهاد إلى هذه المذكرات وأن تعهد تلك المهمة لمن أخترته ووثقت به وبوطنيته ورجولته، أخي الأمين، سنان بطرس متّي، أمينـًا بنقل ما سيجري كما هو دون زيادة أو نقصان).

شيء ما اعتصر قلبي، لكنني حبست مشاعري الحزينة، هربًا من لحظة بكاء ربما ستشل تفكيري لأكثر من يوم، وجدتني أقف في وضع الاستعداد العسكري، أؤدي التحية العسكرية بثبات، باتجاه أبي حسنين وفصائله المقاتلة وهي تتجه لتحرير أعقد المحاور، مرددًا بصوت عالٍ:

- ستعود منتصرًا أخي محمد علي.

يومها أُصبتُ بانكسار كبير كاد يفقدني ثقتي بنفسي وبإخلاصي، وحتى حين جنّ الليل وقد وردت لنا بعض الإشارات القليلة معلنة عن مواجهات شرسة، لم أهنأ لحظة ولم يرتخ لي جفن، كانت الأحزان تقاطعني وتقطّعني وتنازعني والقلق يأكل من جرفي صبري واتزاني وأن استذكر كل اللحظات التي جمعتني بأبي حسنين،

أكثر ما كان يقلقني تمثل بالفراغ الذي خلّفهُ هذا البطل بين صفوفنا.

في ضحى اليوم الذي توجه فيه للمعركة الحاسمة لتحرير المعبر الثالث، تحدث الجميع كيف إنه حضر بينهم بقامته الممتلئة الفارعة، ووجهه المُشرق الباسم، عند الساعة السادسة صباحًا. تحدثوا كيف أنه أوصى الجميع بديمومة الجهاد، ثم كيف أنه لاطف الجند قائلاً:

- أودُّ الذهاب إلى منطقة مشروع الماء حتى أرى المقاتلين هناك وأسعفُ جرحاهم وأخلي شهدائهم.

وحين رفض الجميع ذلك الأمر بمحبة، ضحك وقال لهم:

- سأذهب، ولن أتأخر، أعدكم بذلك بإذن الله.

ذكر الجنود أنهم توسلوه بمحبة طالبين منه عدم الذهاب خوفًا وحرصًا عليه، فنزل عند رغبتهم ليبدأ معهم فصلاً مرحًا بكل روح الفكاهة التي درج عليها، تبادل الجميع النكات والضحكات، وخلّف أبو حسنين جوًا ذكّر الجميع من خلاله بروح السلم التي كان عليها الجميع.

هتف أحد الجنود به قائلاً:

- سيدنا لا تذهب لفتح وتحرير المحور الثالث، هناك خطط بديلة.

كلنا نخاف عليك.

ضحك أبو حسنين قائلاً:

- أتخافون أن أنال الشهادة قبلكم؟ -ردُّوا-

- لا والله، بل نخاف أن نفقدك فنضيعَ من بعدك.

قيل لي أن أحدهم ردّ بشجاعة:

- الصحيح سيدنا، نعم كلنا لا نريد لك الشهادة، لكن حُبـًا فيك.

أجابه أبو حسنين: فليكن خوفك على نفسك حبيبي.

ردّ الجندي: أنا أموت فداءً للعراق ولك سيدنا. - ردّ السيد ضاحكـًا-

- إذًا فلتمت وأعدكَ أن أملأ الشوارع بصورك.

يقول الجند: لقد ضحكنا طويلاً من أعماق قلوبنا، قبل أن يجلسنا أبو حسنين ويجلس معنا على الأرض الصلبة القاسية وصار يتحدث إلينا عن أهمية توطين النفس على الموت والشهادة، قائلاً:

- زهرة الرمان تموت بسرعة يا اخوتي، وكلنا إلى الموت، لا يجوز لنا أن ندفن رؤوسنا في الرمال خوفًا منهُ، صحيح أن سفر الموت بعيد وشاق وفيه قناطر يصعب اجتيازها، لكنها تهون كثيرًا عندما نرحل مستشهدين، علينا أن نموت تحت الشمس نحن الذين وُلدنا في ظِلال الآباء والأمهات.

قال جندٌ آخرون: لقد امتدّ الحديث قرابة النصف ساعة، سخر فيه السيد أبو حسنين من الموت، وأخبرهم بضرورة مواجهته برأس مرفوع فهو بداية الرحيل إلى الجنة.

بعدها استأذنهم جميعًا، دخل إلى غرفته، عاد محملاً بالعتاد والسلاح ووثائق الخطط، ارتدى بدلة عسكرية جديدة، جمّع الجند إليه، أبرأهم الذمّة قبل أن يخوض معهم فصلاً ضاحكًا وآخر من القصائد والأهازيج الحماسية، إلتفت إلى صديق عزيز على قلبه وقال له:

- خذ إجازة واصحب معك سنان فهو متعب جدًا. -أجابه-

(هكذا أخبرني الجميع) قالوا إن ردّ ذلك الصديق جاء مصحوبًا بقليل من دموع مُكابرة: سأبقى هنا حتى عودتك سيدنا، وبصراحة أنا لي هنا صديق وأخ أخاف عليه من القادم القريب.

ردّ السيد:

- أنت تخاف على صديقك وأنا أخاف على صديقك وعليك، أخاف عليك أخي لأنك أمانة الأهل التي وضعوها في عنقي بين يدي الله.

قال الجند: إنّ الموقف هزهم فبكوا وما كان منه إلا توديعهم واحدًا واحدًا وقد خاض معهم وقتًا من الطرافة انتزع به الحزن من صدورهم قبل أن يتوجه إلى السيارة التي أقلّتهُ إلى مداخل القتال الشرس لفتح المحور الثالث في ذلك القاطع المحصن، ثم تبعه الكثير من المقاتلين.

ليلتها، تقلبتُ على تربة الملجأ يمينًا وشمالاً وقد جافاني النوم تمامًا، صرتُ ألوم نفسي للكلام الذي قلتهُ لأبي حسنين، وللنوم الذي سرقني من وداعه، وللخوف الذي بات يوجع قلبي أكثر من أي وقت مضى.

شريط طويل من الذكريات القديمة والندية مرَّ على خاطري، المعارك التي خضنا صعابها معًا. علاقاته بالأهالي هناك، علاقاته الطيبة والكثيرة مع قادة وفصائل المقاومة من غير الحشد الحوزوي، عدم أخذه إجازات اعتيادية طيلة ثلاثة أشهر قتال متواصل، ملحمة إخلاء شهداء بيوت الطين، ترتيبه لأوضاع النقاط والأهداف المحتلة التي يتم تحريرها، ملاحم تأمين الطرقات المستمكنة والمفخخة، حنكته وقدرته العسكرية كقائد لا يهز ووضعه للكثير من الخطط البديلة وخطط النصر والالتفاف والخطط الميدانية المباشرة، رعايته لمواطني بعض القرى المحررة.

امتلاكه للجانبين المدني والعسكري، رقة قلبه الكبير، صعوده إلى ذلك المحور الصعب قائداً لقوة من أبطال العمليات الخاصة لمدة طويلة من قتال الاستنزاف الرهيب، قيادته لأغلب المعارك بالتحامات مباشرة وتحريره لمحورين رغم كون ذلك المحور كبيرًا ومكتظا وواسعًا ومن النوع الذي لا يتأثر بالضربات الجوية وقصف الهاونات والراجمات، وصولًا إلى صعوده الأخير صباح هذا اليوم المنصرم، لفتح المحور الثالث.

يا إلهي كم يقلقني ذلك الاجتياح لهذا القاطع المكشوف وهو يعلم أنه من القادة الذين تم رصدهم، بعد ثلاث ليال صعبة، ثقيلة الوطأة، وصلنا نبأ إصابته في منطقة الرأس، تحت مرمى نيران العدو، أُخبرنا أن عملية إخلاءه كانت صعبة وتسببت بعطب (عجلة الهمر) التي كانت تقله، حيث أُخلي بعدها بصعوبة الى أحد المشافي وتمّ إجراء عملية جراحية لهُ استغرقت ست ساعات استحصلتُ على وجه السرعة موافقة من بعض قيادات ألويتنا بنقلي الى ذلك المشفى لخدمته والوقوف على توفير احتياجاته كجريح.

لا أعرف الوقت الذي وصلت فيه إليه، وجدتني أمسك بيد الطبيب الجراح وأسأله باللهفة الدامعة عن إمكانية نجاته، ليردّ الطبيب:

- لا أخفيك خطورة الموقف، يجب ان نحذر من مضاعفات الإصابة لليومين المقبلين، أنصح بنقله إلى مدينة الطب.

كل هذه الصور والتداعيات مرت على خاطري وأنا أربط نظري إلى التفاصيل المتورمة والمزرقّة لوجه شقيق الروح أبي الحسنين وهو بين الحياة والموت، فجرًا، أفجعني أبو حسنين وهو يفتح عينيه بصعوبة بالغة، ويرفع كفه لمصافحتي، كانت كفه مثلجة، أما جبينه فكان متعرقًا، وقد أخذته رعدة، استوجبت مني التوسل به كي أحضر الطبيب الخفر، قال وهو يضغط على كفي:

- سنان، إياك وخيانة الأمانة، وثّق كل شيء بأمانة، هكذا بلا زيادة أو نقصان أو تكلف، وكُن مع المشيعين، وادخل حرم أمير المؤمنين، وهزّ شباك ضريحه بقوة وقل له:
- خادمك المطيع محمد علي الموسوي انتقل من جوارنا الى جوارك يا ربّ العالمين، فكن معه، ثم أدعُ لي بالرحمة.

أجبته طائعًا:

- خادمك سيدنا، لكن هوّن عليك، ودعني أخبر الطبيب بسوء حالتك.

قال لي وهو يسحب أنفاسه بصعوبة بالغة:

- حبيبي سنان، اسندني قليلًا باتجاه القبلة، لم تعد تكفي أنفاسي لمرور أنّة يتيم.

غامت ملامحه، وكرر التشهد أكثر من مرة، أغفى حتى ظننتهُ قد مات، تنبه لي بعد لحظات، ابتسم في وجهي قائلًا:

- سنان هل تعلم ماذا أرى الآن؟

أجبتهُ باكيًا:

- ماذا ترى أخي محمد؟

- رد بطمأنينة عظيمة-

- أرى ضريحًا مُذهّبـــًا، وخارطة جميلة موشحةً بنهرين عظيمين، وخضرة ممتدّة، وشمس

تشرُق، ومن بعيد ألمح حرائق ودخان، ربما هي بشائر النصر بإذن الله.

ارتميتُ عليه باكيًا، احتضنتهُ بقوة، شمّني ملء رئتيه، قال:

- الله إن لك رائحة تراب ساتر.

ارتخت يداهُ فجأة، ثم سرعان ما أطبق جفنيه وقد ارتسم على وجهه طيف ابتسامة دافئة، ولم يسيطر في غرفة الرعاية الخاصة سوى صوت جهاز الإنعاش الذي أعلن عن توقف نبض قلبه الرحيم وصوت صراخي الذي هزّ الجدران، كما لو أنني صرخت نيابة عن الآلاف من محبيه.

تكريت/ على مشارف محور القادسية الثالث

محور الموت.

واللقاء بالقائد البديل أبو الفواطم.

أوكلت في الأسبوع الأول لاستشهاد أبي حسنين، مهمة قيادة لوائه إلى مجاهد آخر اسمه (عيسى أبو الفواطم)، كان رجلًا طويلًا، نحيلًا، خشن العظم، أشعل الشيب شعره وتفاصيل وجهه وكل منبت شعر في جسده، كانت سحنته السمراء وملامحه الصارمة، لا تعطي انطباعًا مريحًا لكل من يلتقيه، بعد يومين من اجتماعه الشامل مع المقاتلين الذين لا زالوا تحت تأثير صدمة استشهاد قائدهم، كان قد أكد لهم أن ملامح الناصر باتت واضحة وأن القضاء المبرم على داعش بات أمرًا مفروغًا منه، وجدوه يشدد على مسألة الحراسات الصباحية والمسائية وترصينها وإدامة السلاح والتدريب البدني، وضرورة تقسيم الواجبات القتالية الهجومية للتقليل من الخسائر في الأرواح والمُعدات، وضرورة التباعد في صدّ المعارك الدفاعية.

كان يتحدث إلى الجميع بلغة جافة وسكون وهدوء غريبين، بينما عيناه تشعان بحزن غامض، فضلًا عن الصرامة المسيطرة على ملامحه، كان يبدو من نوعية الرجال

الذين لا يُجيدون الابتسام إلاّ ما ندر، لاحظ المقاتلون جميعًا كثرة تدخينه وعدم اهتمامه الكبير برتابة زيّه الحشديّ بسبب

كثرة مشاغله وواجباته.

أول تصريح ضده صدر من (ناصر أبو شوارب) وهو من أهالي غمّاس، عندما هزّ يده بعد تفرّق المجتمعين قائلًا:

- (الحجي كلش ناشف).

فاستمرأ أغلبهم هذا الرأي بالضحك المكتوم، لكن الأيام أثبتت العكس من ذلك.

بعد مضي يوم واحد من اجتماعه بهم أرسل أحد المقاتلين واسمه (شاكر حمادي) وهو من أهالي الديوانية ليطلب من سنان بطرس الحضور إلى مقر القيادة. ألقى شاكر بالتحية على سنان وأخذ بمجازحته قليلًا، قبل أن يقول له:

- (عمي سنان، القائد أبو الفواطم يريد يشوفك).

ما إن دخل سنان غرفة القيادة، حتى نهض القائد أبو الفواطم لاستقباله بالهدوء والصرامة نفسهما، كان يُجلس معه العديد من القادة وأمراء السرايا والفصائل، استفسر من سنان عن صحته ووضعه النفسيّ، ردّ سنان:

- الحمد لله.

ناول القائد سنانًا قصاصة ورقية وقال له:

- اقرأها بصوتٍ عالٍ.

ارتعشت الورقة بين كفي سنان ما إن فتحها في اللحظة التي سقط نظره فيها على خط وتوقيع أبي حسنين، نشج قليلًا، ربتّ أبو الفواطم على كتفه قائلًا:

- هوّن عليك يا بطل، ليرحم الله القائد أبا حسنين.

ردّ سنان:

- ليرحمه الله.

وطفق يقرأ

(بسمه تعالى... أخي أبا الفواطم، كل ما يخصّ الأرشفة والتوثيق ستجدهما في حوزة أخي وثقتي المقاتل المجاهد سنان بطرس متّي (أبو إيليا) دعهُ يكمل المشوار معك بعد استشهادي فكل ما خطّتهُ يمينه كان في عين الله).

العبد الفقير إلى الله

أخوك محمد علي أبو حسنين.

لحظتها، أجهش سنان ببكاء مرٍّ، نهض القائد أبو الفواطم ومن معه من القادة المجاهدين فاحتضنوه بألفة وهم يهتفون به:

- هوّن عليك أبا إيليا، هوّن عليك.

انفضّ اللقاء القصير بالتزام القائد أبو الفواطم بوصية الشهيد أبي حسنين، وإبلاغه لسنان قائلًا:

- ستكون أخي وثقتي وبك سنكمل إن شاء الله تفاصيل بشائر النصر.

ردّ سنان بحزن:

- إن شاء الله شرف لي سيدي.

وقبل أن ينصرف قال القائد بصيغة الرجاء:

- سأكون ممتنًا إن زودتني بوثائق الأرشفة والتوثيق التي دونتها أنت وأبو حسنين لو سمحت.

- حاضر سيدي.

- أستأذنك.

- تفضل حبيبي انصرف.

في خطوات عودته إلى ملجئه، كان أكثر ما شغل سنان في هذا اللقاء، معرفة السرّ في إطلاق أبي حسنين كنية (أبو إيليا) عليه لأول مرة، هو لم يخاطبه بها طيلة علاقتهما الجهادية التي امتدت لما يقرب السنتين، أخذ يربطها بوصيته يوم استشهاده (سنان، إياك وخيانة الأمانة، وثّق كل شيء بأمانة، هكذا بلا زيادة أو نقصان أو تكّلف، وكُن مع المشيعين، وادخل حرم أمير المؤمنين، وهزّ شباك ضريحه بقوة وقل له: خادمك المطيع محمد علي الموسوي انتقل من جوارنا الى جوارك يا ربّ العالمين، فكن معه، ثم أدعُ لي بالرحمة). يومها كان أكثر ما أقلق سنان جهله المطبق لفكرة ردود أفعال القائمين على خدمة ضريح أمير الضوء علي، ومدى تقبلهم لزيارة غير المسلمين لضريحه النورانيّ، وهو قلق سرعان ما زال عند أدائه لتلك الزيارة بعد الطقوس المهيبة لدفن الشهيد أبي حسنين، إذ أخبره أحد العاملين هناك:

- إنك في بيت الله، وفي ضيافة أمير المؤمنين، وأن نبينا محمد صلى الله عليه

وآله وسلم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، هو مَنْ قال عن علي (هو نفسي التي بين جنبيّ) وهكذا فإن زيارتها لم تختصّ بها ديانة عن ديانة وقومية عن قومية ومذهب عن مذهب، فمفهوم المسلم يعني عند ديننا هو من أسلم قلبه وكيانه وجوارحه لله ربّ العالمين وآمن به ربـــًّا واحدًا لا شريك له، وهذا ما اختصّ به أنبياء الله من أهل الكتب السماوية.

قَلَبَ هذا المفهوم النابع من مفاهيم إسلامية رائعة كيان سنان بطرس وأثّر فيه كثيرًا وجعله يؤمن بعدالة مهمته وبكونه ثقة أبي حسنين، وأن ما قام به هو في عين الله، لذلك عرف قيمة أن ينادى بأبي إيليا، وهي ما تعني باللغة العربية (علي) فعرف سنان بطرس متي أيَّ نوع من المسلمين يعيش في ظهرانيهم.

كان أكثر ما أثّر في القائد أبي الفواطم مما تم توثيقه بقلم الشهيد محمد علي أبي حسنين تلك القصص التي وثقها حول جرائم داعش ومذابحه الدامية في (سنجار) وقتله الأبرياء هناك واغتصابه وسبيه للنساء والشابات هناك، وكذلك ما دوّنه حول جرائم مدينة تلعفر حيث التقى عن طريق أبي حسنين بعشرات المواطنين الذين قصّوا له قصصًا تشيب لها الرؤوس جرت على الناس وحطمت حياتهم بالكامل.

قرأ في المسودة الخاصة بجرائم سنجار ما كتبه الشهيد أبو حسنين بخط يده:

(طين ونار الحرب كانتا تكفيان لكي يكتب الأبطال مآثرهم على لوح الخلود بصفاءٍ عجيب بينما تتقطع أوصالهم وثمة امل برفاهية ممتدة فيما وراء هذه الحياة، كان ثمن ضربات الحرب الاستنزافية أو المعارك المفاجئة هو حصيلة ما تقسمه المعارك على ذواتنا من ألم ومنجزات.

كنا جميعًا نحاول قدر الإمكان انقاذ مدننا من هوس الملوك والأباطرة وغربان وذئاب الشر كلما نضجت بلادنا فتية مملوحين من بيضة ذاكرة الحروب، كان الملوك والأباطرة وتجار ومرتزقة الحرب ومشايخ الخيانات يفتك بعضهم بعضا بينما كنا نعرف عن يقين تام ان النزف القادم قادم على أحلام وأسماء فتية أزمنة الجهاد.

كنت كلما اشعر ان صبري قد عِيل ونفد اقتل هواجس القنوط داخل حواسي واضحك من تجّار الحرب وأباطرتها وهم يصدرون لنا شرورهم وقبحهم.

كان الأشرار ينتشون بلمذات قيام حروبهم، بينما نحن نحاول ترميم ما شوهته الحرب في أجساد فتية الجمال والغيرة، وكنا كلما أخلينا وجبة من الجرحى والشهداء تتابعت خطوات الذئاب وتمايلت أصنام الرذائل برضى تام ومُخجل، كان الشهداء يرحلون حدّ التلاشي بينما تعوي نساء الرذائل من الغواني في قصور مشايخ الخيانات، كانت اتجاهات المعارك المتعاكسة تخلف في الذاكرة بقع من دماء وأعضاء تطفو على محارق بطون مبقورة، صمت حزين لأمكنة كانت مسكونة، ثياب وبناطيل، أحذية وألعاب صغار، بقايا زيوت وتعرق على واجهات العجلات المعطوبة وثمة من يحاول ان يقئ أحشائه مستعيذا بالله من بشاعة مشاهد بشر خلقهم الله أسوياء فشوهتهم الحرب، اجمع بقايا وحقائب الشهداء فلا أرى غير صور عائلية أصابها الكلس، أولئك الفتية العراقيون البُسلاء كانوا كلما انقضت جلبة الجرحى حلَّ غيرهم في أماكنهم بعملية توافد وتقاطر عجيب، كنت ارصدهم فأراهم يستشهدون أو يجرحون وهم مبتسمون وقد قلبت الحروب أوجاعهم فلم يمتلكوا غير السُخرية منها ومن بشاعة الموت، وكنا كلما أخلينا موقعا من الجرحى والشهداء أبصر خيول حرياتهم تصهل في الريح وتختفي في كبد السماء، هم عوائل الحروب التي جلبتهم

من قبضة الحياة الماكرة، كلما تعبر غيمة أصواتهم وهم يشدون أزر بعضهم البعض أو وهم يتأملون تفتح الصحراء ومدن الحرب مسافاتها وعطشها في فمي خطوطا فاقنط من لغة حزني بأبوة الخوف عليهم، في الرأس جلبة حرب وأبواب سفر إلى الآخرة، تفتح مصاريعها فأشعر وأنا استنشق دخان أرواحهم المتصاعد إلى السماء إنني أولد وأموت معهم، ففي صحاري ومُدن الحرب يتوحد الجرحى والشهداء مثل بنيان مرصوص يحملون اسمًا واحدًا وحلما واحدًا، راكدون في حرّ الهجير، تمسدهم الأتربة، وتعبرهم الأيام، يهزجون ويضحكون ويلعبون بأسلحتهم فأتلفت مبتهجًا لأرى وطننا ينام مطمئنًا بينما جدائل شعره ولحيته الفضية تلتمع تحت ضوء القمر، كان أكثرُ ما يؤلمني أن أعثر على بقايا ملح وتُراب داخل قبضة شهيد يشبه لون الأرض.

كل هذه المعارك والقصص الموجعة والتفاصيل المتشعبة، كانت كافية لتجعل من الفرد صندوق ألم عراقي ينفجر بذكريات وصور لا تحمل غير الألم، الشباب الذين قاتلوا معي كانوا يتحدثون بذكاء عن العدو، وبمرح عن الموت، وكنت استمع إليهم وإلى حكمهم البسيطة التي تخرج عن الفطرة السليمة، كانوا على يقين من انهم سيموتون جميعًا بحجارة الحرب، كل واحد منهم كان يعرف أنه سيموت بطريقة معقولة ومشرّفة، كل من كان يمتطي صهوة جواد وسط حومة المعركة كان يعرف أن الدور سيأتيه، الكل سيترجل يومًا عن تلك الصهوة، فالجنة تطلب رجالها، لهذا كانوا ينكسرون على بعضهم البعض حزنًا وندمًا بينما كان أسياد العالم وتجار حروبه وطائفيّه وخونة ودواعش الداخل يرقصون على أحزاننا.

كل الجرحى والشهداء كانوا رجالاً يوشحهم الصلاح وهم يملأون الرصاص

أو وهم يفرطون في حب وطنهم وشعبهم ورموزهم الدينية وقادتهم، كانوا يطلبون الوفاء بأظافرهم التي تتحرق إلى نيل الشهادة، فيثبون على السواتر والجدران نحو عجلات وثكنات العدو المفرودة على الكراهية.

في كل المعارك التي كنا نقدّم فيها تضحيات كثيرة أو أكثر من المتوقع، مقابل الحصول على مكاسب لوجستية، كان الحزن ينتابني لما حصل للناس هناك، سنجار أدمت قلبي، الذين أسهموا بسقوط الموصل، شرعوا الأبواب أمام داعش لاستباحة سنجار، لذبح الشّيبة، لسحق الطفولة، لحرق الحرث والزرع، لقطع ماء الله عن أفواه الظامئين، لإتلاف الطعام عن البطون الفارغة الجائعة، لبقر بطون الحوامل، لاستباحة البواكر وقتل البعض منهنَّ وسبي البعض الآخر منهنّ، لا أعرف كيف قيض لهؤلاء أسر الآلاف وارسالهم إلى مصائر مجهولة؟! وبأيَّ شرع استباحوا شرف الأيزيديات ليعرضوا أجسادهن في أسواق الرق والنخاسة؟! لا أعرف أية وحشية تلك التي اغتصبوا بها الأولاد ولاطوا بهم، ثم جندوهم ليكونوا دروعًا للتفجير عن طريق الأحزمة الناسفة؟! لم استوعب كيف لفئة ضالة أن تجبر الناس عن التخلي عن إرثهم وطقوسهم ومذاهبهم وديانتهم؟).

تنبّه القائد أبو الفواطم أن خط أبي حسنين قد تداخل وضعف، دلالة تعبه أو حنقه ربما، فما كُتبَ بعد ذلك التوثيق لم يكن أكثر من رسومات لنياسم طرق وخريطة مشوهة وأرقام وتواقيع، لينتقل بعدها إلى ما وثقه سنان بطرس متي حول جرائم مدينة تلعفر، التي جاء نصها تحت عنوان (تلعفريات.. حكاية وجع عراقي) ليسترسل في قراءة ما دوّن عن تلك المأساة.

(كانت رحلتي شاقة رفقة أبي حسنين الى مشارف -تلعفر- بعد استباحتها

وتعرضها لأبشع الأعمال الإرهابية الوحشية لهذا التنظيم القذر، هناك هيأ لي أبو حسنين فرص الالتقاء بخمسة وخمسين شخصًا كانوا شهود عيان على الجرائم التي ارتكبت هناك في تلعفر، تلك البقعة التي مثلت عراقًا مصغرًا بتعددية طوائفها وقومياتها وجذورها الضاربة في عمق الحضارة، كان هذا ما أغاض التنظيم جدًا وحوّل سلوكه الى سلوك عدواني وحشي لم يفرق فيه بين الجميع، بل وزّع شروره قتلًا وتدميرًا بعمليات دلّت على أحقاد دفينة مخطط لها بعناية وقصدية كبيرتين.

خمسة وخمسون شهادة بخمسة وخمسين استذكارًا مؤلمًا رجال فقدوا كل شيء، بيوتهم، ممتلكاتهم، وظائفهم، عوائلهم، زوجاتهم، أولادهم، بناتهم، مدنهم، لكنهم لم يفقدوا حلم العودة إلى الأرض بعد تحررها من الغاصبين، الأرض هي الجذر، الانتماء، الرحم الحقيقي، هي الحب، الذكريات، دبيب الحياة وضجيجها المحبب.

خمسة وخمسون صوتًا، سجلت أسماءهم وألقابهم بالكامل، استمعت إليهم وهم يسترسلون ببث لواعج أحزانهم ورسم أشكال فواجعهم، تارة بالدمع وتارة بالغضب، قصّوا عليّ قصصًا ما كان للعقل أن يصدقها، حرق المحاصيل، قتل المواشي، ذبح المواطنين، زرع السيارات المفخخة في الأماكن الأكثر تأثيرًا، زرع الفتن، تجنيد الأطفال للقيام بعمليات إرهابية بالأحزمة الناسفة، تهجير الناس بلا ضمانات، سرقة أموالهم ومصوغاتهم وحليهم الذهبية، مصادرة الأسلحة والسيارات، فتح أبواب الهجرة والتعرض للمهاجرين وقتلهم، استهداف أكثر الأماكن كثافة بالناس لتنفيذ أعمال التفجيرات التي توقع بالمواطنين أكبر الخسائر، زرع الفتن والفرقة بين الناس لإحداث احترابات أهلية بين المكونات المختلفة، خطف النساء المحافظات والمساومة على شرفهنّ واغتصابهنّ وقتلهنّ بعد ذلك، حرائق هنا وهناك، انفجار

هائل عن طريق صهريج عملاق أحدث حفرة عميقة وأحلّ خرابًا في بيوت كثيرة، وقتل ما قتل من الأبرياء، احداث انفجارات بسيطة تتبعها انفجارات أكبر كلما همّ الناس بإخلاء الجرحى والشهداء.

تنظيم مختلّ حوّل تلعفر الى مدينة أشباح وحياة الناس إلى جحيم، وترك في قلوب الآباء والأمهات حسرة وانكسارًا لأولاد جرحى وشهداء مقطعي الأطراف، ممزقي الأشلاء، وفتيات مخطوفات، بمصائر مجهولة.

في المدينة مكون شيعي وآخر سني، مكونان متصاهران متعايشان بألفة ومحبة وسلام، وفي المدينة تركمان ومسيحيون وشبك وأقليات كردية، لا أحد يشكو شيئًا من أحد، لا أحد يمتلك الحقّ بتنغيص حياة الآخرين، الجميع يرسم ملامح حياة مشتركة قوامها الحب والبساطة والسلام.

أي عقليات سوداوية تمكنت من هؤلاء لتزجّ بهم في مرابع تلعفر -عراقنا المُصغّر- ليعيثوا بالحياة هناك ويعبثوا بمقدرات الناس فيزرعوا الموت في ظل خطواتهم وفي ارتعاشات تنفسهم شهيقًا وزفيرًا.

أدرك -التلعفريون- بمختلف طوائفهم أن داعش ما كان ليتمكن من كل ذلك لولا ضعف أنفس البعض وخستهم وعمالتهم وخياناتهم التي يندى لها الجبين، كان هؤلاء وبعضهم شيوخ قبائل أشبه ما يكون بنقطة سوداء لقطران لا يختفي عن مساحة بياض ناصع لثوب طاهر، بسبب أطماعهم وخياناتهم تحطم كل شيء جميل في حياة الناس وبناهم التحتية، عُبث بكراماتهم حتى ليكاد أحدهم أن تنشقّ الأرض وتبتلعه على أن يعيش حياة الذل والهوان، ومع ذلك لم يفقدوا الأمل يومًا.

كمّ المعلومات السرية التي حصلت عليها حول أوضاع المختطفات التركمانيات أصابني باكتئاب حاد، أمرض نفسيتي، ملأ نفسي بحقد لم أألفه في حياتي، لم استوعب فكرة أن يتدنى الإنسان بإنسانيته أسفل بكثير عن سلوكيات حيوان الغاب! وحوش بشرية أشبعت غرائزها بالقتل الوحشي لتتجه لإشباع غريزة أخرى ألعن فتكًا، هي غريزة هتك حرمات النساء، العبث بحياتهنّ، مصائرهنّ، أجسادهنّ، ثم العمل على تحويل البعض منهنّ إلى أدوات قتل عن طريق تفخيخهنّ بالأحزمة الناسفة، أو تحويلهنّ إلى جوارٍ تحت بندي الرق ّوالعبودية، وعرضهنّ وبيعهنّ في أسواق النخاسة.

كانت تلعفر من المدن التي احتلت من قبل الأمريكان عام ٢٠٠٤ وكان التحرك لمقاومتهم يثير العواطف في قلوب مواطنيها، كانوا يعتبرون ذلك قمة وطنيتهم، لذلك انبرى الكثير من المشايخ والشخصيات المعروفة لتلك المسألة، إستغل تنظيم القاعدة ذلك وبدأ بالتعاون مع هؤلاء بذريعة مقاومة الأمريكان، صفحة قتالية استغرقت ستة أشهر، ثلاثة منها أقنع التنظيم الناس بإنه ضد التواجد الأميركي على أراضيهم، أما الأشهر الثلاثة الأخرى فلقد أخرج الثعبان رأسه من جحر شره، صار يلعب خفية على لعبة الاستهداف الطائفي، يفجر مكوناً هنا ويؤلب المكون الآخر عليه، والعكس صحيح، حين تنبهت الناس لذلك، كان الحساب عسيرًا على مكون السنة بحجة مساعدتهم للشيعة والتعاون معهم تجاريًا.

هذا المنطق كان مرفوضًا من الجميع، من هنا بدأت قصة الشُقّة بين تنظيم القاعدة والمتعاطفين معه بين رافض له ومؤيد للعبة الاستهداف، شقة فتحت صفحة سوداء من الظلم والقتل والسبي والاختطاف والتفجيرات والخطف والاغتصاب.

ذهب الآلاف في مطحنة التفجيرات التي تجاوزت الأربعمائة بستة عشر تفجيرًا، أزهق أرواح أربعة ألاف مواطن بريء، وترك آثار وندوب الإعاقة والجروح في أجساد ثمانية آلاف غيرهم، كلهم انتهوا ضحايا لتفجيرات العجلات المفخخة والأحزمة الناسفة.

كانت الموصل قبل تلك الصفحة المشؤومة قد سقطت بعد عشرة أيام من مقاومة خجلى بسبب الخيانات العظمى لبعض الجنرالات من قيادات الجيش العراقي، ومن مشايخ الذل والمهانة.

أما تلعفر الوادعة، الجميلة، المسالمة التي تتمتع بثروات زراعية وحيوانية، وبشمال جميل، متاخم لسوريا وتركيا، فلقد قاومت بعشائرها وبشبابها خمسة وعشرين يومًا رغم قلة الأسلحة والإمكانيات.

لتجد نفسها بعد ذلك الوضع المريب، مدينة يسكنها الدمار والموت، وتتبعثر أشلاء مواطنيها وسط الشوارع المستهدفة بالمفخخات، موت لا يفرق بين صغير وكبير، وبين رجل وامرأة، وبين فتوة وشيبة، مئات من الانفجارات اليومية في مناطقها ومكوناتها كافة، جعلت منها مدينة تسبح بالدماء ويغطيها الدخان من الجهات كلها.

كان أكثر ما آلم الناس تلك القيادات والشخصيات التي ساعدت القاعدة ومن ثم داعش على استهداف ورصد الناس والأسر المعروفة ومساعدتهم في أمور التفجيرات والقتل والتهجير وتشجيعهم على فتح صفحة السبي والاختطاف والاغتصاب، فضلًا عن سلبية الحكومات المحلية التي فشلت بتوفير الخدمات كافة والمشافي والماء والطعام، بل وحتى معاملات الناس الرسمية، حتى أصبح تواجدهم

أمرًا مستحيلًا، وتواقيعهم من المعجزات.

من التفجيرات التي تحدّث عنها المواطنون الذين وثّقتُ قصصهم، كان تفجير حي الوحدة هو الأقوى، كان يومه أقرب ما يسمى بموت الجحيم، شاحنة ملغومة بمواد شديدة الانفجار داخل صهريج للبنزين، تقف في مكان ضاجّ وعاجّ بالناس، يحصل الانفجار، يفتح بوابة من بوابات الجحيم، يُسمع صوته خارج حدود مدينة تلعفر، ترتفع كتلته الحمراء المسودّة بالدخان أعلى السماء، تغطي سماء تلعفر بحزن أرواح من استشهدوا غدرًا، ضحايا على شكل مجزرة وحفلة شواء بشري، تهتزّ البيوت ويتهدم البعض منها وتنهار الأسقف على ساكنيها من هول الانفجار، زجاج يتطاير، احجار تنفلق في الجو ثم تتوزع طائرة كما الشظايا، أعضاء بشرية متبعثرة، أشلاء ممزقة، محترقة، كارثة بشرية حلّت بالمكونات كافة، خاصة المكون السنيّ، يُسمعْ صوت انفجار آخر في منطقة -كسر محراب- ذات الأقلية الشيعية، انفجار أقلّ وطأة من انفجار حيّ الوحدة، لكنه انفجار لخلط الأوراق.

لم يترك انفجار آثاره العظيمة على أنفس الناس أكثر من انفجار حي الوحدة، منه ابتدأ خط الانتقام الشامل ومعاقبة المدينة، وجعل الموت والخراب يحلان فيها بديلين عن الحب والسلام.

ما ميز أهل -تلعفر- بكل مكوناتهم، الجانب الإنساني الذي أبدوه فيما بينهم، كلما حلّت كارثة بهم على أيدي التنظيمين، الجميع كان يساعد الجميع بالدم والمال والأكل والشرب، والتضحية لمن يستشهد أو يُصاب، وسط قصور حكومي محلي واضح، حين عجزوا عن تقديم أي شيء.

مرحلة عسيرة، مظلمة، شهدت تجدد أساليب القتل والاستهداف بشكل لا

يمكن مواجهته أو اللحاق في كيفية تجنبه، تفخيخ البيوت، استهداف الجميع، قطع الماء والكهرباء، قتل الخدمات الأساسية، تفشي ظاهرة الغدر والاختطاف، استهداف الصغار، استهداف النساء، عقد كامل من الزمن قتل فيه تنظيم القاعدة آلاف الناس وأعاق وأصاب أضعافهم، وهدم بيوت سكن الناس ودور عبادتهم.

ثم حلّ تنظيم القاعدة ليضاعف عذاب الناس ويزيد في أرقام قتلاهم وجرحاهم وتضحياتهم، وجدتني أبكي بمرارة، قبل أن يشد أبو حسنين من أزري بسبب ما جرى لأسرة موسوية قدمت في حادث واحد ستة وأربعين شهيدًا وخمسة وستين جريحًا، فضلًا عن اختطاف ستة من النساء العلويات تم العثور على واحدة منهن مقتولة وممثل بجثتها، كان هذا السيد يتحدث كيف أن انفجارًا حصل أمام عتبة جارهم فخرج لإسعافه وتبعته ابنته واثنان من ولده، فوجدوا ابن جارهم الشاب مستشهدًا ووالده جريحًا، وحين همّ السيد بإخلائه، تاركًا لولديه إخلاء الجثة الممزقة لولده، حصل انفجار ثانٍ، قتل بسببه أحد أولاد السيد وجُرح الثاني، بينما أصيبت ابنته إصابة بليغة في نخاعها الشوكي أصيبت بسببه بشلل رباعي، مات الجار بعد أيام قلائل، وفجع السيد بأولاده الثلاثة، ليضرب مثلًا بالأخوة التي كان عليها الجميع.

احتاج في مهمتي التوثيقية إلى كتابين منفصلين عمّا جرى من مآسٍ في سنجار وتلعفر وحدهما، وهو ما سأنجزه إن لم تختطفني غولة الحرب بإذن الربّ، قصص وتفاصيل لا يمكن للإنسان استيعابها، فضلًا عن تصديقها.

إن كان تنظيم القاعدة قد جرف معها على مدى عشر سنوات آلاف الأرواح البريئة ما بين قتيل وجريح، فضلاً عن تهديم بيوت الناس وأماكن عباداتهم على مختلف مِللهم، بالمكر والخديعة والاستهتار، فإن داعش قد فاق هذه الأرقام وزاد

فيها من أعداد المفقودين والمخطوفين وأسس للعبودية والرق والمجون بطرق لا يمكن تصورها، والذي لا يمكن تصوره وعلى لسان من أتلفوني بقصص فجائعهم تلك الخيانات التي تلقوها من القبائل المحيطة بهم سيما (شمّر) و(بنيوت) ولواحقهما حين أصبحت هذه القبائل حواضن لداعش القتل، وذراعه اليمنى ودليله المجاني، فكانت هذه الفواجع، حتى أنهم دلوهم على الأماكن التي يمكن للبعض أن ينفذ من الموت منها، فأصبح طريق الموصل طريق الموت، مثلما أصبح طريق العرب الرابط بين أربيل-سليمانية-دربن دخان -خانقين- وحتى الفرات الأوسط، طرقات موت وسيطرات غدر يتم فيها تسليم الهاربين الى تنظيم الخراب لقتلهم أو لاستعبادهم أو لرقهم.

جاء داعش بعهد خرابه فدمر كل شيء، فجّر قلعتهم التاريخية، قام بتجريفها بحثاً عن الكنوز والآثار التاريخية القديمة، بكى أحد المواطنين وهو يقصّ عليّ تلك الجريمة، قال أصبحت بيوتنا غريبة علينا بسبب الخراب الشامل، وأصبحت مدينتنا طيراً هُلّس ريشه بسبب الفراغ النفسي الذي أحدثه الدواعش بتفجيرهم لقلعتنا العتيّة وتجريفها ومن ثم تفخيخها بالكامل لقتل من يفكر لبثّ الروح فيها مجددًا، كانت القلعة التاريخية واحدة من أهم معالم نينوى الحضارية.

إلتفوا على تلة علّو عنتر أو بئر الحمام، وهي بئر مخيفة بقطر يبلغ خمسين مترًا وعمق يبلغ مائة متر، أصبحت على يد الدواعش أشبه ما تكون بفم واسع يبتلع الضحايا بقسوة ووحشية.

كانت تلك التلة تضج بهديل الحمام وتغريد البلابل والعصافير بأشكال تبعث البهجة، ولأن في الأمر ما يشيع الجمال كرهه التنظيم الظلامي الداعشي، فحوّله

إلى مقبرة مفتوحة لقتلاهم الذين يأتون بهم على شكل مجاميع، فلا تسمع سوى اعتراضات الرجال وعويل النساء وصراخ الأطفال.

ثم لا شيء، صوت الرصاص وهي يشق عنان السماء، جثث ترمى في عمق ذلك البئر الواسع، أصوات جرّافات تهيل الصخر والتراب على جثث القتلى، سيارات تبتعد بالنسوة صوب المجهول.

كل ذلك جرى بعد صدور فتوى عن دائرة الأبحاث في داعش، حصل أبو تحسين على نسخة مصورة منها وجاء في متنها «يجوز بيع وشراء وهِبة السبايا والإماء، إذ إنهن محضُ مال، يُستطاع أن يُتصرف به، ويجوز وطء الأمة التي تبلغ الحلم إذا كانت صالحة للوطء، أما إذا لم تكن صالحة للوطء، فيكتفي بالاستمتاع بها دون الوطء، ويجوز ضرب الأمَة ضربَ تأديب».

تلك الفتوى الحقيرة لطالما استوقفتني فيها جملة -أما إذا لم تكن صالحة للوطء- فاستفسرت فيها من أبي حسنين، فأخبرني: هم يقصدون البنات الصغيرات ما بين السادسة والثامنة.

يا إلهي لم أنم يومها! فعلى هذه الفتوى الوحشية، السادية، تمّ اختطاف المئات من الفتيات التركمانيات واصبحن في عِداد المفقودات وممن كُتب في صحائفهنَ «مسلمات خارجات عن الملة، حلال وطؤهنَّ وقتلهنَّ حرقًا لمخالفتهن شريعة التنظيم».

كان تلّ الحمام النقطة الفاصلة بين الموت والعبودية والرق والإذلال، كان الدواعش يأتون بمن هم فوق سن الاثنتي عشر سنة من التركمان والأيزيديين من سنجار وتلعفر، فيعزلون الرجال والصبية والسيدات كبيرات السن عن الفتيات، ثم يقتلون الصبيان وكبار السن من الجنسين ويرمون بهم في عمق تلك التلة المخيفة، ثم

يقومون بخطف الفتيات واغتصابهنَّ قسرًا، وقتلهنَّ بالحرق حتى الموت بعد الانتهاء من عمليات الاغتصاب الجماعيّ، بينما يحتفظون بصارخات الجمال ويتزوجوهنَّ قسرًا على ضوء الفتوى التي أباحت لهم تلك الأفعال من غصب واغتصاب وتعنيف وإذلال، كونهنَّ إماء وأسيرات حرب.

كان يتم حجز المختطفات الجميلات بمناطق ومعسكرات خاصة في الموصل وتلعفر وتل بنات والبعّاج والرنبوسي وسنجار والرقّة وربيعة -شرق سوريا- وداخل منازل ومصانع ومزارع ومدارس وسجون وقواعد عسكرية ومكاتب حكومية.

كان نقل الفتيات يتم بشكل منظم ومنتظم داخل الأراضي العراقية- السورية لعدة مرات على أيدي دواعش بهويات عراقية- سورية-ليبية-جزائرية- سعودية- فلسطينية- ومرتزقة من أوربا وآسيا الوسطى، وثّقتُ من القصص ما يشتعل منها الرأس شيبًا وتترك في النفس كآبة لا شفاء منها.

كانوا يأخذون كل فتاة على جنب فتغتصب من داعشي، ثم تُحلُّ لثلاثة أو أربعة منهم، ثم تُباع الفتاة لداعشي آخر فيغتصبها ثم يبيعها إلى من يود تملكها فيغتصبها هو ومن شاء من مقربيه.

كانت تلك الأمور تدار وتتم بالبيع وبالمداولة وبدفع خُمس العبيد.

كانوا لا يغتصبون المتزوجات كونهن على ذمة رجل، يتصلون به، يساومونه عليها، وكانوا يسقطون هذه المساومة عن الأيزيديات حصرًا

كل الأسيرات شبعنّ قهرًا وذلًا وعبودية، فتعيش الواحدة منهنّ بلا احترام لإنسانيتها ولا اهتمام لصحتها، بل كانوا يعمدون لتغيير اسمها وتُجبرُ على نسيان أهلها أو زوجها أو أولادها وغيرهم، لم يتسنّ لهنّ أخذ علاجات لأجسادهنّ أو لمنع

حملهنّ من الممارسات القذرة اللائي كُنّ يتعرضنّ لها، ومنها إهمال الأطفال المولودين بعلاقات غير شرعية وتركهم حتى الموت.

أكثر ما استفزّ الغالبية من الفتيات المختطفات من الأيزيديات والتركمانيات كان موضوع تغيير الديانة والزواج القسريّ، لذلك لجأت الكثيرات منهنّ إلى الانتحار الذي كان يتم عن طريق قطع المعصم بالشفرات والزجاج، الشنق بالحبال، وبالصعق الكهربائي في مغاطس مياه الحمامات، تناول أقراص السمّ الخاصة بالجرذان والفئران.

كانت عقوبة من تنجو من الانتحار تتعرض إلى ضرب مبرح، ثم يجيء بأختها فتغتصب جماعيًا أمام ناظريها وتمارس على الإثنين أشدّ أنواع الضرب والتنكيل). أغلق القائد أبو الفواطم تلك الصفحات المؤلمة لما وثّقه المجاهد سنان بطرس متي، وأقسم على تطهير كل الأراضي التي تقع ضمن مسؤولية قاطعه من دنس الدواعش، بعد أن همش على مذكرات التوثيق. عزيزي سنان، بورك يراعك، لكم هوّن على القُراء من وطأة ألم نقل الأحداث، وتأكد أن النصر آت.

يوم التميّز ٢٠١٧/١٢/١٠

يومَ تنفسّ العراق نصرًا

دوام الحال من المحال، وما يزرعه الشرّ قتلًا، يحصدهُ موتًا لا رحمة فيه، كل رأس قُطع وكل جسد تشظى، كل زرع أحُرق وماء قُطع، كل منزل هُدّم وبيت عبادة تمَّ تفجيره، كل حياة سُلبت وأخرى تعطلت، كل شيء تمّ باسم القتل والدمار، أعاده الله الى نحر فاعليه، وانقلب السحر على الساحر، وأُسقط بيد التنظيم، أودع الجنرالات الخونة السجون، وحُجمّت أدوار مشايخ الخيانات، وأطبق الخناق على الكلاب المسعورة للتنظيم، على أيدي القوات المسلحة العراقية وسلاح الجو العراقيّ والحشد الشعبي المقدّس وفصائل المقاومة، وشرفاء الداخل من أبناء العشائر.

صدقت الأمنية التي وعد بها أبو حسنين جنديه الوثائقي سنان بطرس متي بتحقيق النصر بوقت قريب، فدارت دائرة السوء على دواعش الشر في القواطع كافة، حين رسم العراقيون بمختلف تسمياتهم وصنوفهم القتالية صورة للنصر المبين، هناك سمع الجميع صهيل السواتر، فساح الدم العراقي في مجرى واحد، هو مجرى التضحية والفداء.

على مدار الساعة وفي محاور السواتر كلها صال الشيعي والسني والكردي والتركماني والأيزيدي والشبكي، صولة رجل واحد على الفلول الداعشية المرتزقة ليحققوا أجمل الانتصارات ضد هذا الوجود الذي لا يملك غير قسوته وقيحة وبشاعته.

عادت جرف الصخر التي أراد داعش النفوذ منها لبلوغ كربلاء والنجف، وأنشدت آمرلي نشيد نصرها وصبرها بعد أن حوصرت بتركمانها الشيعة عقب سقوط الموصل، حيث تمّ فصلها عن مكونها الحقيقي السني، وقطع عنها الماء ومنع عليها دخول الماء والطعام والدواء أشهر طويلة، وشن عليها التنظيم أبشع الهجمات يوميًا ولم يفلح لتماسك أهلها.

وتلك الضلوعية التي انتفضت بمكوناتها وفصائلها وبقواتها المسلحة، نجحت باستعادة كرامتها وفكّ الحصار عنها وعن المنطقة، وبلد وديالى، وفيهما سُحق الدواعش بعد هيمنة وسيطرة على أطراف المحافظتين فتحررتا بالكامل، الدور والعلم والبغدادي، انتفض العراقيون هناك وتم سحق وطرد التنظيم هناك، لتطوى صفحته السوداء أبدًا، تكريت التي تظافرت فيها جهود الجيش والحشد ومجاميع ألفية من عشائر المكوّن المتحدة، تحررت هي الأخرى على امتداد خطوطها المغتصبة شمال بغداد وسامراء المتاخمة لنهر دجلة، بعد أن كانت تحت الاحتلال بسبب التحركات الهائلة للتنظيم وسقوطها منذ العام ٢٠١٤.

(شرح للمتبقي من المعارك)

كان يوم العاشر من الشهر الأخير لسنة ٢٠١٧ يومًا عظيمًا في حياة الناس، يوم أعلن بيان البشرى، حين صهلت السواتر كلها بالنصر الموعود من الخالق العظيم.

احتفالات، أفراح عارمة، أرض مكتظة بالناس، سماء مؤتلقة بأفراح النصر، دموع وابتسامات، يدُ الله القديرة ترفع كابوس الوحش الداعشي عن الأرض التي هي مهبط الأنبياء والأولياء والرسل، يعيد إليها الطُهر، ويغسل عنها بألطافه كل الدنس الداعشي أبدًا، حشد الله يزفّ البشرى لمن خطوا بيمينهم فتوى الجهاد، للشهداء الذين رووا بدمائهم الزكية سواتر الشرف وأرض الوطن، للجرحى الذين حملوا الجراح أوسمة عز وشرف، للمقاتلين الذين تعشقوا بالتراب فنثروا عطور تعرقهم فوق سواتر الشرف، للمرأة كي تزغرد لطهرها الذي عاد، للطفل حتى ينام هانئًا تحفّ به الملائكة، للبيوت التي هُدمت والأسر التي هُجرت، للدم الذي سال، للورد الذي عاد ليتفتح.

بعد يومين من احتفالات النصر، وجد سنان بطرس متي نفسه داخل الصحن الحيدريّ الشريف، ثم قبالة المرقد المعطر بعطور الجنة، مرقد -إيليا- إمام الضوء

والنحل والجمال المطلق، يتحدث إليه باكيًا، شاكرًا الله على نصره، يخبره أن يكون الوسيلة الأبدية لشفاعة أخيه المفتقد الشهيد محمد علي أبي حسنين.

يومها شعر سنان بسكينة لم يذق مثلها أبدًا، خيل إليه أن الطريق الى الله لن يكون إلا بالمرور بكل هذا الضياء الممتد من رأس -إليا- حيث يرقد إلى حيث عرش الربّ.

بعدها وجد نفسه أمام حديقة غنّاء عامرة بالورود وبالعطور، خصصت لشهداء الحشد، حيث يرقد صديقه وأخوه الشهيد -محمد علي أبو حسنين- غمره بماء الورد وبأعواد البخور وبباقة كبيرة من الورد الطبيعي جلبها خصيصًا للشهيد وقد كتب في كارتها (أخي الشهيد البطل أبا حسنين، أهديك الورد بمناسبة تحقيق النصر الذي كنت أنت أحد أبطاله حتى الشهادة، بكى عند شاهدة القبر، كل من كان على مقربة منهُ سمعوا له نشيجًا خافتًا كمن كان يبكي بخجل تام، أخبر صديقه أن روايته قد تمت، وأن كتابيها الوثائقيين قد أنجزا وهما في عهدة القائد أبي الفواطم، الذي وعده أن يسلم النسختين إلى الجهات التي صدرت عنها فتوى الجهاد لغرض طباعتهما.

جثا على ركبتيه واحتضن شاهدة القبر قائلًا:

- آه.. نسيت أن أخبرك أن أحمد الولد الوحيد لحسن الحمود قد استشهد، وأن حسن قد أصيب على أثر الصدمة بجلطة أقعدته تمامًا، وأنه قد ترك كتابة الشعر وتوجه لعبادة الله واستغفاره ليل-نهار.
- أما د. سليم عبد الصمد فلقد أصيب ولده الأكبر في عموده الفقري وتعوّق، أما سليم فتعرض لأزمة قلبية شفى منها بمعجزة، وحين فاز ولده

الثاني بجائزة دولية للأفلام القصيرة عن فلمه الذي خصّ به الحشد، فرح كثيرًا وقرر أن ينجز كتابًا عن شهداء الحشد عبارة عن سير مكثفة، أسماه -السائرون إلى النور- نهض أخيرًا ليودع القبر بالقبلات مرددًا:

- نم قرير العين، لقد تحققت نبوءتك، وتمّ النصر، عراقك عاد ليتنفس ملء رئتيه، سوف أزورك مجددًا يا صديقي، أقسمُ أني أرى خلف قبوركم سواترَ تصهلُ بقوة، وقف بوضع الاستعداد، أدى للشهيد تحية عسكرية رائعة، ثم تلا على روحه وأرواح الشهداء جميعًا سورة الفاتحة بصوت عالٍ، ونسيّ أن يُخبر رفيق السواتر، إنه كان قد أسلم.

انتهت

بغداد ٢٨- ٦ - ٢٠٢٢م